

حَسْبُكَ الزَّخْلَاوِيُّ

ضَحْكَا مُتَمَّا الْقَدْرُ

من فاروق إلى الثورة

تصـديـر

تعتمد الخروج على ما هو مألوف في بناء القصة بغية
التدليل على أن ميدانها رحب يتسع للحياة بكل ما فيها ومن
فيها واعتقاداً بأن القصصى فى مقدوره أن يلج أبواب
الآداب والفنون والعلوم أيضاً ، وأن يلون الطبيعة بألوان
تزيدها سناً وبهاء ؛ وأن يصور النفوس والأخلاق والعادات
لا على الحالات التى فطرهم الله عليها ، بل على الحال التى يريد
الكاتب المبدع أن تكون عليها من الجمال والحق والخير ،
وأن يصف المجتمع وصفاً يراه المؤرخ أدنى إلى حقائق العصر
وروحه .

وأزعم أن القصة تناجز الشعر وتساوله بسلاح من أدب
الشعر القائم على اللفظة الجميلة ، واللفتة البارعة ، والصورة
الآخاذة، ولعلها إنتصرت عليه لأنها تخاطب القلوب من وحي

شعورها والعقول من فيض حكمتها، وتهمس في أعماق النفس
الإنسانية همسات روح الإنسان، وتحاول بشتى وسائل الإغراء
والتشويق أن تجتذب القارىء من أى طبقة ومن أى ثقافة .
كذلك أعتقد أن أولى واجبات الكاتب القصصى
إستلفات نظر الغافلين إلى طيِّبات الحياة . وإسترعاء انتباه
الذاهلين إلى مفاتنها ، وإيقاظ وعيهم ليدركوا عجائبا وغرائبها .
هذا ما قصدت إليه وعسى أن أكون قد بلغت القصد .

مبىب الزمرى

احتدم الجدل بين الرفاق المجتمعين للسمر وتزجية الفراغ
كعادتهم في كل أسبوع ، وكان الحديث يدور حول الصديق
كان الواحد ينكر وجود الصديق ويدلل على انعدام
الصفات الواجب توافرها فيه والمزايا التي يتحلى بها، وكان الثاني
لا ينكر وجوده إطلاقاً ويقول أن بعض الصفات لا كلها إذا
وجدت تكفي للدلالة على وجوده. وكان الثالث يقول ان الصداقة
والصديق مشتقان من الصدق الذي ليس له وجود ولا معنى
في هذا العصر ، وما هما إلا اسمان مساويان لأسماء العدالة
والحق والحرية والمساواة وما يماثلها من الأسماء ذات الحدود
المشاعة والمعاني العامة والتفريعات النسبية والافتراضات
الوهمية. وقال رابع لست من رأيكم في الصداقة ولا من مذهبكم
في تعريف الصديق، لست يارفاقي ممن يحملون الصديق أكثر مما
حبته الطبيعة من خلائق وسجايا، ولا ممن يفترضون في الصداقة
أن تكون مثالية جامعة للفضائل كلها ، لأنني أومن بالصاحب
فقط ، وهو خدن رفيق معروف موجود ، بيد أنني أكاد أقول
في الصديق أنه اسم لغير مسمى وأعتقد أن الصحبة تقارب

وتعاطف وتفاهم واطمئنان وتجاوب ، ورب خصيصة واحدة من هذه الخصائص أقرب إلى ذهني ووجداني من فضائل الوفاء والكرم والارحية والنخوة والنجدة والصدق وما يماثلها من الفضائل الكريمة المفروضة حتماً في الصديق ، أننا يارفاقى نحمل الصداقة أكثر مما حملناها من فضائل مثالية ، وحملاً الصديق بدافع من أنايتنا ما لا يطاق حمله ، تصوروا معي أن رئيس الوزراء القائم بالأمر الآن هو خدني في طفولتي ورفيقي في المدرسة وزميلي في الجامعة ، وعشيرتي في صباي وشبابي ، وأنه اتجه ناحية السياسة فبلغ رئاسة الوزارة ، واتجهت صوب التجارة فارتفعت ، فبلغت قمة عالية ومكانة مرموقة فهل من حقي على رئيس الوزراء ، بحكم المعرفة القديمة ودوام الألفة ، أن أرغب إليه أن يعينني سفيراً للدولة في إنجلترا أو أميركا؟ وهل من حقه على بحكم المعرفة والألفة أيضاً أن أقرضه مبلغاً من المال يعز على إداره؟ كيف يكون حال رئيس الوزراء إذا كان ممن يزنون الرجال بعقولهم ومعارفهم لا بأموالهم وعقاراتهم؟ وكيف يكون حالى إذا كنت من أولئك الذين يحسبون الفوائد البسيطة والفوائد المركبة؟ بل كيف يكون موقفنا إذا رفض كل منا تحقيق رغبة

صاحبه ؟ برغم ذلك لا أوافق على إنكار الصديق ، ولا على تقويم الصاحب بقيمة الصديق ، هذا إذا وجد ، ولكنى أقول وأناذى بتجزئة الصديق ، وتقسيم الصداقة الى مقامات عشرية ومئوية ، وبالاكتفاء بما ينالنا من هذه التقسيمات ، وبكبت أنايتنا من الالتاح فى الفروض ، والتتصل مما يقابلها من واجبات ، لأن أكثر أدياء الصداقة إنما يحبون منها الصداقة التى تسرهم وقال آخر ' وقد خف حماس المجلس وفترت همة الذين يسايرون عواطفهم دائماً ، ليس من اليسير أيها الرفاق لقاء صاحب يبادلنى الانجذاب والالتئاس ، بل من العسير أيجاد صاحب أو رفيق أو فرد واحد لا تقوم مودته على غير الرياء والنفاق والطمع ، وأنه لمن الهناة للإنسان أن يسعد بصاحب أو صاحبين تقترب مشاربهما وأذواقهما من ذوقه ومشربه ولو بعدت المسافة بين الثقافة والادراك ، والأهناً من هذا أن نرضى عما نحب من صفات مبعثرة فى من نعرف

— هل تعنى بقولك هذا أن نصاحب كل من نعرف ؟

— لست أقصد كل الناس ، إنما لا أجد ما يضيرنى اذا

صاحبت من كان أرفع أو أوضع منى مكانة لصفة فيه حبيبة
إلى نفسى

اختلط الكلام بين المتحدثين وأخذ يتشعب ويتناثر حتى
كاد ينأى عن موضوع الصديق والصدقة والصاحب والرفيق
كان مجلسنا ذاك يضم طائفة من أصحاب الذهن النير
والثقافة الخاصة والعامة ، ولعل تنوع هذه الطائفة وتعدد
مشاربها ، وتقارب نظراتها الى الحياة الإنسانية هى التى عاونت
على إحكام الألفة ، وتوثيق عرى المودة بين أفرادها ، وجعلت
جواذب الائتلاف أقوى من دوافع الانفصال ، إذ من المحتم
فى جماعة كهذه أن يكون فيها من لا يستسيغ آراء هذا ، ويستثقل
حديث ذاك ، وينفر من سماع ما ينشد ذلك الشاعر من نظم
سمج ، وكان هذا لا يحول دون انفراد هذا بذاك والأنسياق معه
فى حديث خاص يفصلهما برهة من الزمن عن الاشتراك فى
حديث الجماعة ، وربما كان ذاك المنفردان الغارقان فى حديث
خاص ، أحدهما عالم متخصص فى علم ضيق محدود لا يمت بصلة
الى الأدب الثانى المتخصص فى الأدب الذى يشمل الحياة ،
ولكن التفاهم والائتناس نحيا علم العالم جانبا ، وأبعدا أدب

لأديب بعيداً، فجعلنا طبيعة المخلوقين الانسانيين تتجاوب روحاً
لروح، وفي اعتقادي أن ذلك الارتباط على ما فيه من تجاوب
روحي ليس من الصداقة والصديق في شيء له وزن كبير أو
قدر رفيع أو شأن عظيم في الحقل المثالي .

لقد انفرط عقد ذلك المجلس بموت كبيره وتفرقت جماعته ،
وراح كل واحد منهم يسعى الى رزق جديد من غذاء روحي في
حلقات أدبية أخرى . وما أنس أن نسيت رابطة كانت تربطني
بواحد من أولئك الرفاق — لا الأصدقاء — لم أشعر حين
التقينا وتعارفنا بما يجذبني اليه ، أقول انه لم يكن يحبني ولم أكن
أحبه ، ولكني كنت أقدره قدره ويقدرني قدرى ، ولكن
تكرار الاجتماعات ، ومواصلة الأحاديث ، ومراجعة الانسان
نفسه في أحكام كان أصدرها عفو الحس اللدني ، جعلتني أغالط
نفسى وأصحح حكمى الصحيح ، وليس العجيب في ذلك أننا
أخذنا نتقارب ونتفاهم بل العجيب حقاً أن صرت أحمله أثقال
صدرى واوجاع روحي ، وكان يفضى إلى بمكنون هممه وينشدنى
قصائد آماله . ولما بحثت عن الباعث على ذلك التقارب ، والتفاهم ،
والسار ، وجدت تماثل أعراض الداء ، ووحدة الألم ، وتقارب

وجاءه في نفسينا هي التي ألقت بيننا ، واكبر الظن أنه متى
برىء أحدا من علة انفصمت عرى ذلك التقارب وانحلت
من ذاتها

هذا صاحب وسأقص عليكم واقعة الكبرى في حياته كما
سمعتها منه ووعتها ذاكرتي ، تدلّكم على أن الصداقة لا وجود
لها وأن مظاهر الانسان كلها باطنية كانت أو ظاهرية ، في الذهن
المثقف أو في الفكر الساذج ، إن هي إلا خداع ، وكذلك التعارف
الاجتماعي والصلات الودية ، ومعاشرة الناس والتقرب اليهم ، إن
هي إلا وسيلة إلى ما سمي صداقة القصد منها إشباع الأناية . فصاحب
ذلك الذي سأحدثكم عنه لم تتوطد الصلات بيننا إلا بعد أن عرف
كل منا نفس صاحبه . فعلى معرفة النفس دون معرفة المظاهر تكون
المودة ، وليست الفضائل الاجتماعية هي التي تجعل من الانسان
صديقاً صادقاً ، بل النفس هي التي توجد الفضائل ، والنفس
بطبيعتها ميالة الى التنفس ، فلا محيد للإنسان عن إيجاد إنسان آخر
يبته لواعجه . وأزعم لكم أن الكنيسة الكاثوليكية لم تبتدع
الاعتراف ابتداء بقصد الوقوف على أسرار أتباعها ، بل فرضه
المشرع الحكيم فرضاً ليخفف عن النفوس أثقالها ويزيل كبتها

بالاعتراف ويجعلها من الرجاء أقرب ، ومن الأمل أدنى
وبه الصق

قال أحدهم لقد أشبعت الموضوع تحليلاً فهل لك أن تسمعنا
قصة حياة صاحبك ذاك الذى اعترف بها اعترافاً كاثوليكياً؟
قلت القصة طويلة متشعبة . فهل عندكم جلد على سماعها؟
قال واحد هذا أمر متروك لقدرتك على اجتذاب حواسنا
بالتشويق والصدق .

منذ غادر صاحبي ذاك مقاعد الدرس فى أوروبا عائداً إلى
مصر فقد الألفة الروحية ولم يجد لتلك الفقيدة بديلاً فى أهله
وقومه ، وكان من عادته أن يسجل فى مذكرات حوادث حياته
اليومية ، وقد أطلعت على البعض منها فإذا هى تحفل بسرد
أحداث اليوم مفصلة بوقائعها المادية ونفحاتها الوجدانية
بأسلوب أدبي بارع وأخاذ أيضاً ، الأمر الذى حدا بى إلى مطالبة
ذلك الرفيق العالم المتخصص أن يسلك مسالك الأدب فأجاب
أن ساعتى لم تحن للنشر الأدبى بعد . وقد لمحت من خلال قراءة
تلك المذكرات صورة امرأة تنبىء بوضوح أنها لم تكن تتلقى

علوم ذلك الشاب ذاتها وتتدارسها معه فحسب . بل كانت
تشاطره حياة الشباب بكل نزواتها ولهوها

ليس بالأمر الهين على شاب جاوز الأربعين من عمره
عاش ربع أعوامه في قلب أوروبا النابض بالحياة النازية
والفاشية والشيوعية ، أن يعود ليعيش في القاهرة الراسفة في
قيود العبودية الملكية، وشرور ملك طاغ وحاشية زبانية فاجرة،
ناهيك بالانحلال الخلق في الحكام والشعب . وتكالب هؤلاء
جميعاً على سلب المال وجمعه بشتى الوسائل ، وإنفاقه على المرأة
والقمار . وليس من السهل أن يجد مثل هذا الشاب فتيات نصفاً
يختار منهن من قد تصلح لأن تتيواً عرش قلب متعطش للحياة
والحب، وليس من اليسير المضى في هذا الوسط الفاقد لجميع القيم
دون أن يكون عرضة للتورط في العيوب والتمرغ في الرجس ،
بل من العسير على الإنسان أن يتسامح في حريته الشخصية
وجلا من السلطان الغاشم أو يشترك في إهدار الحريات
تزلفاً للحاكم الجشع . وهكذا تعقدت حياة ذاك الشاب ، وقد
فقد الألفة الروحية ، وأخفق في العثور على فتاة تشاطره الحياة
وأصيب بعدوى المجتمع فأخذه دوار جعله يترنح بين الهروب

من رزايا العصر ونوائبه الخلقية والاجتماعية ، وبين الارتواء
في تياراته يشاطر السلايين فيعيش عيشة الرغد والجاه والسلطان
التي تهفو نفسه إليها

إنقطع صاحبي عن ندوتنا ولكنه لم يكن يقصر في السؤال
عني بالتليفون بين فينة وفينة ، وفي دعوته إياي إلى زيارته في
صومعته التي لم يعد يزارها إلا لقضاء عمله اليومي بالجامعة .
وحدث ذات عشية أن رحت لزيارته على غير ميعاد ، فلما فتح
الباب طالعني وجه صاحبي وقد كان يلبس منامة لا أذكر أنني
رأيتَه يلبسها قبل الليلة ، إذ كان يحافظ عل أن يتجلبب بجلباب
فضفاض واسع البنية رحب فتحة الصدر ، ينتعل نعال الفلاحين
والقرويين ، ولحت مسحة دكاء من الحزن تغشاه ولم تقو عبارة
الترحيب بي ولا ابتسامته العريضة لي على مداراتها أو تغطيتها ،
ولما ولجت القاعة ، وكانت مضاءة بمصاييح ملونة في جبال ممدودة
وأعلام من الورق منشورة في أركانها ، ورأيت خوانا تتوسطه
زجاجة من الويسكي غير مفضوضة من حولها أطباق مليئة
بأنواع من اللحوم والسمك والتوابل وقدحان فارغان ،
وصورة زيتية كبيرة مركزة فوق مقعد في وسط القاعة في إطار

بديع الصنع لسيدة في نحو الأربعين من عمرها واضحة البدانة،

شقراء الشعر ، واسعة الجبين ، سوداء العينين

نعم شقراء الشعر سوداء العينين !!

التفت إلى صاحبي أستوضحه بإشارة ونظرة استفهام

فأوما إلى الصورة وحنى رأسه وبكى

رجل يبكى ؟! لقد فاضت عينا صاحبي بدموع غزيرة ،

وكنت أزعم أن الدمع شحيح في الرجال ، وقد غطى وجهه

بكفيه ، والرجل فيما أعتقد لا ينجله إلا الحزى

جلست أنتظر نضوب دموع الباكي وانحسار غمة صدره ،

ورحت أقارن بين تكوُّره في جلسته في ندوتنا مرفوع الرأس ،

شامخ الأنف ، يقظ النفس ، لا يفارقه عبوس الأسد المتحفر ،

اللهم إلا نكتة ظريفة أودعابة لطيفة ترده إلى طفولته تتجلى

ببسمته الحلوة ، وقسمات وجهه الحنطى ، فقلت في سرى وأنا

أتهجد ، ما أشقى الرجال بالنساء .

قمت إلى زجاجة الوسكى ففضضت ختمها وملأت كأسى

من قطرها الذهبي وكسرتة بالماء المعدنى والثلج وشربت نخب

« الأسد الباكي » .

قرعت عبارة « الأسد الباكي » ^(١) سمع صاحبي وهزت شعوره فهض من مقعده وهو يمسح ما جف من دموعه على خديه ، وأخذ يبدى اعتذاره لى على مفاجأتى إياه بهذه الزيارة . قلت مداعبا أين هذه المنامة الحريرية والخف المطرز من « البلغة » الصفراء والجلباب الفضفاض ؟

فابتسم وقال « إلبس لكل حالة لبوسها » قلت وهذه المائدة العامرة « بالمنكر » المستطاب لمن هيأته ؟ قال « للذكرى »

قلت التى تنفع المؤمنين ؟ قال نعم ان المؤمن بالحب هو كالمؤمن بيارئه قلت وهذه ، وأشرت يدي إلى الصورة الزيتية فقال « هى مبعث سعادتي ومصدر شقائي فلولاً حبي لها وشقائي بها لما كان لحياتي معنى قط » قلت متى ماتت هذه البدينة الشقراء ؟ قال « أنا الذى مت منذ رحلت عنها »

(١) عنوان قصيدة من روائع خليل مطران يقول فيها :
أنا الأسد الباكي أنا جبل الأسى أنا الرمس يمشى دامياً بين أرماس

قلت زدنى تعريفا بهذه المرأة البلقاء

لم يستسغ تسميتى صاحبه بالبلقاء فنظر إلى نظرة ذات معنى
وراح إلى الغرفة المجاورة فأحضر ثمانية دفاتر يومية «أجندة»
وقال وهو يلوح لى بواحد منها «بهذه الدفاتر أحيا ومنها استقطر
رمقى ، ولولاها لكنت كالصجرء القاحلة أو القمة الباردة
قلت ماذا فى دفاترك هذه ؟

قال فيها تدوين وقائعى اليومية منذ بارحت مصر فى طلب
العلم حتى عدت إليها بالزاد الذى يغذى قومى
قلت لقد أطلعنى على واحدة منها فيما سبق ، والآن أسمعنى
مذكرة واحدة منها ، قتناول دفترأ ففتحه فأخذ يتلو وصفا كالدر
المنضد أو الشعر المنشور لليلية يوافق تاريخها يوم اجتماعنا هذا ،
أتمرج فى نقل فقرات منها لأنها مزيج من الواقعية المكشوفة
والرمزية التى تومى إلى أولى معارك الحب الدامية فى مطلع الشباب
قلت أين يبانك البديع هذا والأسلوب العذب السلس
من دراسه الآثار وحفر القبور ونش الدفين وفك لفائف
وأكفان الموتى وتقليب الجثث وتموين سراج الذهن وإيقاد
فتيل الروية واستلهاهم جنبات العقل تنير لك سبيل استنباط «تقليعة

هايفة ، عن أصحاب تلك الموميات الجافة المقددة فتدعى أنها
من الأسرة الأولى أو العاشرة أو العشرين الفرعونية ، ولأراد
لادعائك بالغ ما بلغ من السخف

فأجاب : فى الناس من يتعلم العلم لذاته ومنهم من يتوسل به
لأشباع المعدة وأرضاء الرغبات أما الأدب فحياة وحب .
وليس فى الوجود من لا يحب الحياة لأنها الحياة أو يكره الحب
لأنه الحب

قلت زدنى يانا وتعريفاً بصاحبك الشقراء البلقاء ، وبمشرح
التثيل هذا وأشرت يدي إلى المائدة والصورة والأنوار
والأعلام ، ثم إلى المنامة الحريرية والحف المطرز بخيوط القصب
قال أنت تستدرجنى إلى اعتراف لا محيد من حمل قسطك
منه ، أما أنا وقد عزمت وتوكلت على الافضاء إليك بوجيعة
قلبي ، فصار من الواجب على أن أستعين بكأس تحفنى على
الانطلاق بغير ما تمويه أو تورّع ، وقام الى الزجاجة فياً كأساً
أترعها ثم عبّها دفعة واحدة وارقد برشاقة وهو يتلمظ واقعد
مقعداً بالقرب منى وقال :

أخذت مكانى فى مقاعد الدرس بين طلاب الجامعة وأنا

لا أعرف من اللغة الألمانية سوى الكلمات المرسومة في الكتاب المطبوع ، اما معانيها فقد كنت أستعين بالقاموس على فهمهما ، وكنت أيضاً أنطقها بصعوبة لا تخلو من تحريف لعسر مخارجها الصحيحة بعد تراكيبها، ولكنى كنت أفهم ما أقرأ، وأعى ما أسمع وأتوهم أن فى استطاعى التعبير بالكتابة عما أفكر بتلك اللغة الشائكة

لاحظ طالب أنى أستجد كثيراً بالقاموس، فرغب الى أن أستجير به ما دمت فى جواره ، وما كدت أستعين به حتى طوى كشحاً وأعرض عن مناصرتى
عذرت المسكين على الضيق بأسئتى والهروب منى ، ولكن للقدرة القادرة التى تشمل الغريب بعنايتها أسبغت على نعمة هى لا شك من نعم الله وإليك البيان
عندما نفر الطالب من جيرتى حلت محله هذه الفتاة الشقراء وأشار إلى الصورة الزيتية

قاطعت كلامه وكأنى أتممه وقلت وقد تعارفنا ، وصرتما تشركان فى الدرس والمطالعة فانطلق لسانك فى اللغة الألمانية ثم تمت العشرة والتألف . فتناجى القلبان وتجاوب الجسدان

وكنْتَ لفرطِ حياتك وجهلك أصول حياة المجتمع ، وعيِّكَ
 في التعبير بصراحة عما يحيش في صدرك ويختلج به وجدانك ،
 عمدت إلى صفحات هذه المجلدات ، تملأُ سطورها في تصوير
 الوقائع اليومية والأحداث المتبادلة ، لا كما وقعت ، بل كما
 كنت ترغب أو تشتهي أن تقع ، وقد لعب خيالك الغض
 دوراً أدبياً بارعاً ، فأفرغت مذكراتك في بيان من الفن
 والجمال ، والأظرف من كل هذا أنك ما برحت سادراً
 في أوهامك تحاول نفخ حياة في تلك الأيام تحياها واقعية
 مجسمة كما هي حالك الليلة في هذا المسرح المضاء بمصابيح ملونة
 وهذه الصورة والمائدة والمنامة والخف

صوب نحوى نظرة مشدوه وقال ثم ماذا؟

قلت حنان من عانس تكبرك سنا يماثل حنان أمك وقد
 حرمته منذ طفولتك ، وتدليل عوّض عليك بعض ما فاتك من
 تدليل المرحومة والدتك وهوّن عليك بعض ما تحمّله من
 قسوة زوجة أليك ، ثم يجب أن لا تنسى أن الطبيعة البشرية
 تصحح مواقفها وتستكمل نقصها بذاتها ، أنظر إلى نحاقة جسمك
 وضحامة صاحبك ، وإلى قصر قامتك ومدادة قامتها وإلى سواد

فاحم عجيب في عيني فتاة شقراء من قلب أوربا وخضرة عجية
في عينيك أنت البدوى من صميم الصحراء

قال ماذا تعنى بخضرة في عيني وسواد في عينها؟

قلت لا يسامحني الله إذا كنت أسأت الظن بكما ولكني
أعتقد أنكما كنتما متجاوزين بحكم من أسرار الطبيعة ، متجاوبين
تليان دعوة المجهول

قال وقد أربد وجهه واكفر ، أن في استنتاجك تعريضا
بمخلوق هو أقدس الناس عندي وأطهرهم
قلت كلنا أبناء أمهاتنا بلا ريب نقدر الأمومة ونباركها ،
ولكن ألا تذكر قول السيد الجليلي « لا يثمر الشوك عنبا ولا
العوسج تينا » .

هز رأسه هزاً وأيدا متواصلا وكانت الخمرة قد أدارت
رأسينا وخدرت أعصابنا فكففنا عن التفلسف وأخذنا نهدي
شأن كل مخمور

ثلاثة أعوام طوال مرت على ذلك الاجتماع ، وكان إذا
طالني مصادفة وجه صاحبي ذاك ، كان يبادرني بتحية غريبة

صارت لازمة فيقول « العيون السود والشعر الذهب » ويتبعها
 « الشوك يثمر الشوك والعوسج الحسك » وكنت اجيبه عن
 تحيته بهزة من الراس تدل على التأمين والاقتناع، فكان يضحك
 ضحكة تنم عن السخرية والألم ، ويمضى في سبيله دون أن
 يدعوني إلى زيارته أو مجالسته

لقد هجر صاحبي صومعته فطرق مع عشرات الطارقين
 أمثاله السبل الأخرى سعيا للوصول إلى ما وصل إليه
 أقرانه من أبناء الجيل من الدروب الهينة واتخذ دائرة أنيقة في
 الضاحية ، وسيارة فخمة ينقل إليها الزائرات والزائرين وبدأت
 عليه نعم الثراء الهابط هبوطا ، وصار على ما قيل لى لا يتخرج
 بأقوال الناس ويعددها هراء وترهات ، وانى لمستهتر بالأوضاع
 والعرف منكر للقيم كلها ، حاقدا على المرأة يرميها بكل حجر، انى
 له ان يتخرج أو ينجعل أو يستجى ؟ وكنت أرغب في قرارة
 نفسي أن أراه

وفي ذات ليلة من ليالى الربيع الباسم ، صفت سماؤها
 وتلايلات نجومها. ورق هواؤها، وتجلي روحها اللدنى يرفرف
 فوق كل ما فى الوجود يهدد الروح ويوقظ مشاهرها ، فى تلك

الليلة البهيجة بالربيع الطلق ، زارنى صاحبي ذاك فى بيتى يحمل لى
طاقة جميلة من الأزهار

سررت بزيارة هذا الصاحب الغريب الأطوار سرورى
بطاقة أزهاره الجميلة وقد أخذت أصففها فى الزهريات . وإذا به
يحذرنى من الأشواك

قلت أداعبه « الفضل للورد كل الفضل فى شوكة » ثم ألفت
أسأله ألا قل لى من هى السيدة المحترمة التى ردتك بهذه الطاقة
الجميلة وصفقت الباب فى وجهك ؟

فهمقه من الضحك وقال هى زوجتى الحبيبة
قلت زوجتك ؟ هل تزوجت و أنت الذى رميت كل امرأة
بكل حجر ؟

قال نعم لقد رميت كل امرأة بكل حجر لأنى بت أو من
انا نعرف أمهاتنا ونقدسهن كل التقديس ، ولكنى ما رجمت فتاة
العصر عفووا عن حنق أو حقد . وما نقمت عليها خروجها على
العرف والتقاليد ، بل رثيت لحالها وأشفقت عليها لألب
كافة عوامل الشقاء الاجتماعى عليها .

قلت ، قل لى بربك هل تزوجت حقيقة ؟ لأنى لا أزال

أكذب سمعى

قال أجل تزوجت وحم القضاء وانتقلت من مجتمعكم
الزائف وصادقتكم المموهة بذوب الصداقة الذهبى ، إلى أحضان
زوجتى وقد جئت الليلة لأقص عليك قصة زواجى لكى تنقذنى
مثلاً أنقذتنى من ورطة الفتاة الشقراء

قلت إن الاقتراب من المرأة يدنينا حتماً من المشكلات
ويعرضنا لكل ورطة

صرخ فى وجهى ولوح بيده يدعونى إلى الكف عن الأسئلة
الاعتراضية والتفلسف لأنه يضيق بهما وقال دعنى أشاطرك
مسرّات نفسى كما جرعتك بعض أقداح من خمرة شقائى فيما سلف
قلت ها أنا مصغ

أشعل لنافذة واستراح فى مقعده الوثير يرشف القهوة وقال:
منذ نهتنتى إلى حقيقة موقفى من تلك الفتاة البلقاء صرت أنتبه
إلى كل أمر قبل الأقدام على البت فيه ، أقدر له التقدير الدقيق
لأصل إلى النتيجة المعقولة

قلت حسناً تفعل . فقال

قدرت أولاً أنى سأبقى مدفوناً بين جدران الجامعة أكتفى

بمرتبي وما يتبعه من علاوات وترقيات ودروس خصوصية
وبذلك أبقى على طرف هامش الحياة التي يحياها الكادّ المجتهد
مثلي غارقاً بين الكتب والدفاتر .

قدرت ثانياً أنى إذا أقدمت على استلاب السلايين أموالهم
من السبيل الأقرب والأسهل مستعينا بالصدقة على تهيد السبيل
لتعريف الناس بعضهم لبعض لا أكون أبعد كثيراً عن روح
العصر وبذلك أنبذ الحياة على هامش الحياة وأندغم بصميمها
وقدرت ثالثاً : أن الخبر إذا شاع وانتشر فانه لا يتجاوز
الأحاد ولن يبلغ العشرات وبذلك أنجم من حياة البؤس

وقدرت أيضاً أن الناس قبل أن ترتفع أنظارهم إلى مثلي
سينظرون إلى السيارة التي أركبها ، وإلى البناية التي أملكها ،
والى الرصيد المتجمد الذى سيتسابقون فى تقديره وفى معرفة
المصرف المودع فيه ، وقد اقتنيت وتملكت وادخرت ، فعلت كل
هذا قبل بيع الدارة وتسريح روادها الأغنياء وشراء سواها فى
ضاحية الزيتون لأقبل على الزواج . وقد نجحت نجاحاً
منقطع النظير فى إخراس ألسنة الناس وإطباق أشداقهم ، تارة
بالصدقات والاحسانات ، وتارة بشراء ضمائر أصحاب الألسنة

المتقلة بين الأندية ، وبدس عشرات الملالم بأيدى عشرات
الشحاذين ، وهكذا كانت كل المقدمات الصحيحة تصل بى إلى
ما كنت أتوقع من نتائج طيبة . ولم أخب إلا فى تقدير واحد
اختلفت فيه معايير واضطربت موازينى ، كأن القدر الضاحك
كان يتربص بى ليضحك من تقديرأتى ومن مقدمأتى وتأتجى . فى
هذه المرة ضحك القدر منى ملء شذقيه ، وقد ضحكت معه
ملء رئتى ولكن الغريب فى ذلك أنى لا أدرى إذا كان
اشتراكى فى الضحك معه هو للفرح بالحياة أو للسخرية منها
قلت إذن حمَّ القضاء وتزوجت نجت

قال دعنى أقص عليك أولاً كيف ضحك القدر منى ،
قدرت أن الزواج من فتاة ريفية أو قروية إن لم يكن فيه كل
الخير ، وبعض من السعادة فإن فيه على الأقل البعد البعيد عن
بواعث الشر ومواطن الشقاء . وقدرت أن سذاجة الذهن
وبساطة التفكير حتى بلادة الفهم إذا وجدت فى الفتاة القروية
أو الريفية ، هى بالقياس أفضل من إدعاءات أنصاف المتعلات
من المدنيات ، وغرور الجامعيات المتفهبقات ، وحماقات المعلات
المدرسات ، وتحذلق الفتيات العصريات ، على هذا الأساس

من القياس النسبي بنيت قواعدى ، وعلى هذه القواعد الوطيدة
شيدت بنائى العالى الذرى

أخذت اقترص الفرص للذهاب الى الريف والتقرب الى
أهله والتعرف على ناسه ، وتعمدت الصدوف عن الصعيد
موطن أهلى وعشيرتى ، لا هربا مما تدخره دوره من الملاحه
والخلق ، بل لأتجنب روايات وأخبارا لا تموت فى الصعيد
وحدث ذات مرة وأنا فى مديرية الغربية ، أن رأيت فتاة
نصف حضرية ونصف قروية خارجة من متجر ما كدت ألحها
وأأتين وجهها الحلو، حتى شعرت بانجذاب نحوها، وبصبوة اليها
فرحت أتبع خطاها، أتبعها ببصرى ، أقيس قامتها المتوسطة
الطول ، وخصرها الدقيق ، وردفها العبل بقياس من الاختبار
المضبوط ، ولم أستطع رؤية ساقها وتبين تناسقه من إنسدال
فستانها حتى الكاحل ، وبرغم أننى كنت شارد اللب ، لم أكن
أغفل عنها طرفة عين وهى تمشى الهوينا حتى بلغت أطراف
المدينة ، وهناك راحت تتغلغل فى قرية صغيرة ليس فيها من
بيوت مبنية بالحجر والآجر سوى بيت من طابقين
لا يعقل أن تقطن تلك الفتاة المهندمة فى بيت حيطانه من

طين مشبك بأعواد القصب، وسقفه المنخفض تعلوه أكداس
القش، يشترك الانسان والحيوان والدواجن في الأيواء اليه
عدت كالمهوف العجلان لا أدري إلى أين ولا بمن ألوذ
أو أستعين ولا من أجاأ اليه

كبر على أن أسأل عمدة القرية عن فتاة لم أتبين ملامح وجهها
مخافة أن يرميني بما أنا منه براء، ولكن القلق الذي ساورنى
والهلع من فوات الفرصة وضياح الأمل والى ما شاكل
ذلك من اضطرابات لا معنى لها، جعلتني أهدأ هداة المستسلم.
ورحت إلى مشرب ألتبس فيه وسيلة للهروب من إلحاح
النفس.

ثلاثة أنهار طوال متابعات من مطلع الشمس الى غروبها
كنت أرقب فيها مداخل القرية ومخارجها صوب المدينة.
أترصد سوانح الفرص الهادية الى سواء السبيل. وأصارحك
القول يا صاحبي. أنى كنت لا أدري ما هى الفرص التى كنت
أترقبها ولا ما هى الوسيلة الى بلوغ الارب، لأنى استسلمت
للقدر الضاحك وقد ضحكك كثيرا من نفسى

وفى ضحى اليوم الرابع بينما كنت أتمشى قرب مدخل القرية

لمحت فتاتي تخطو خطواتها المتتدة المتزنة فى الدرب العمومى
الموصل الى قلب المدينة فرجف قلبى

انه ليخجلنى يا صاحبى أن أصور موقفى فى تلك اللحظة لأنك
ستضحك منى كما ضحكك من نفسى . رأيتها فاندفعت صوبها
أوتوهمت أنى كنت مندفعاً ، فلما اقتربت منها لأقول لها ما أريد
أحسست بجفاف فى حلقى ، واستعار فى وجهى ، وعقلة فى
لسانى ، ورأيتها تصوب الى نظرة من أجفائها الفاترة ضاعفت
ربكى فوقفت . وكأنى بها شعرت بما بى من إضطراب ، فأرادت
إنقاذى من مناسم حياتى وإدخال الطمأنينة على نفسى باظهار
ستعدادها لسماع ما أريد أن أقول

فهمت منى بعد جهد أنى أرتجى منها معرفة اسم والدها لأمر
يهمنا . لبت رغبتى فى هدوء وبصوت خفيض حلو الرنين ، عيَّنت
لى مكان وزمان التقائى بوالدها ومضت فى طريقها لا تلو عنقا
ولا تتلفت .

وقفت برهة فى مكانى كالمسمر . ولم يكن يقلقنى
آنذاك قبول والدها مصاهرتى أو رفضها . بل رحت أفكر
وأنا أمشى الهوينا مطرقاً . فى الأعوام الطوال التى قضيتها فى

أوربالا يصدني عن مجابهة أية فتاة بجرأة تبلغ القحة ، وبطلب كريم منها أساوم فيه مساومة اليهودى الشحيح ، ولا عن صفاقة بالغة حدود المعرة والدنائة فى اللياغة والمرأودة وقتما اتخذت من الدارة التى افتتحها فى الضاحية لتكون ملتقى لطلاب الشهوة، بل قفزت إلى ذهنى عبارة كنت قرأتها عن الحياة الزوجية أنها « شىء رصين » وارتسمت أمامى صورة مقدسة سرية ، أجل أنها شىء رصين . فموقف الفتاة الرصين ، وموقف المضطرب الخجول ، هما على ما يبدو لى ، اللذان محوا من ذهنى كل أثر وذكرى من مواقف نزعات الشباب ونزغات الشيطان وأشعرتانى بشرف النفس ، وكرامة الرجل الحريص على طهارة المرأة ونقاء عرضها فى موقف الزواج

غابت الفتاة عن ناظرى ، ورحلت أمشى على غير هدى ، فإذا بى أجدنى واقفا عند باب الفندق وقد انتصف النهار ، فالتفت أقيس المسافة الطويلة التى قطعها ماشياً من الضاحية حتى مدخل المدينة . فى هذه اللحظة تذكرت مكان وزمان الاجتماع الموعد مع أبيها الذى سيكون قبيل غروب الشمس فى اليوم التالى .

صعدت إلى غرفتي في الفندق وما كدت أستلقي حتى
 رحت في رقاد عميق عوض ما فاتني من ساعات طوال قطعها
 في الليالي السوابق في الأرق والبلبال

طفت المدينة طولا وعرضا أستخير من أعرف من أهلها
 من سيكون حمى . فوقفت منهم على شبه توافق في الحكم في
 شريف ملكات الرجل ومحمود شمائله ، ونقاء صحيفته يوم كان
 من المتقدمين بين موظفي المديرية ، أما الآن وهو في سن التقاعد
 فقد صدف عن الناس ، وتباعد عن المجتمع ، مكتفيا بحياة هادئة
 مع زوجته وابنته الوحيدة ، في بيت يملكه في ضيعة قريبة من
 مركز المدينة ، وبضعة أفدنة من الأرض الطيبة يستغلها أحسن
 استغلال وأتقنه لقربها من المدينة . وقد اختلف الناس في
 رواياتهم عن ابنته الوحيدة ، فمن قائل أنها بكر عانس رغم
 ملاحقتها ، ومنهم من شهد بأنها ردت وما برحت ترد طلابها ،
 ومنهم من قال بالتواتر أنها مطلقة أو أرملة ، ولكن ما من واحد
 من هؤلاء يعرف اسم مطلقها أو المرحوم زوجها
 واستطرد يقول

اكتفيت يا صاحبي بهذا النزر اليسير من الأقوال المتضاربة

وعدت أسأل نفسي متى كانت أخبار الناس سليمة من التحريف
خالصة من التزويد والإضافات؟ ومتى كان رواية الأخبار غير
آفات سامة؟ وفي لحظة واحدة محوت من ذهني جميع ما كنت
عرفته بالخبرة والتجربة والدرس والقراءة، وقد أنكرت كل ما
كنت أدعيه من فلسفة وآراء ذاتية في حياة المرأة. لقد محوت كل
ذلك من لوحة ذهني، وتنكرت له استجابة لنداء داخلي مجهول
يدعوني بالحاح إلى ربط حياتي بحياة تلك الفتاة التي لم أرها
المرتين رؤية خاطفة مبرقة بغشاء من الخجل والرغبة
والوجل، وعزمت على الاكتفاء بما سيقول والدها في ابنته،
وعلى الاقتناع بما سوف أسمعه منها مستعينا بفراستي وحدسي
وشعوري وإيماء قلبي.

في المكان والزمان لقيت والدها في انتظارى. وهو شيخ
أنيس المحيا، طلق بشوش، ما كدت أذكر له اسمي ولقب عائلتي
حتى مد إلى يدا بادية الحرارة وقد شد على يدي وهو يرحم على
والدي، ويذكر مكانة أهلي. وعلو قدرهم وبعد صيتهم، وقد
رحب بي وأهل وقال أنه على استعداد للاستماع إلى وقضاء

حاجتى وتلبية طلبى .

شكرت الشيخ الودود على ترحيبه بى والاشادة بأهلى
وعشيرتى . ووقفت حيران هل أفتحه بأمرى وقد وطدت
العزم عليه . وعقدت النية على تحقيقه ، أو أنتحل حكاية ألفقها
للتخلص منه مخافة أن يرمىنى أنا العربى البدوى بالخروج على
عادات قومى وتقاليد عشيرتى بطلبى يد ابنته غير العرية
لم يطل ترنحى بين الأمرين ، ولكنى ما طفقت أتكلم
حتى تعثرت أفكارى وأخذت أتهافت فى كلامى وأتلعثم ، ولكن
بشاشة الشيخ ، وسريره الطيبة الطافية على محياه البسام ، ووعده
إيأى بقضاء حاجتى دفعتنى لأن أقول بصوت خفيض
ظننت عندما رأيت حضرة الأنسة ابنتكم فى طريقها إلى
البيت أنها فلاحه ابنة فلاح من صميم الريف ، لا ابنة موظف
من كبار الموظفين .

لم يدعنى أمضى فى بيانى بل قاطعنى بإشارة وهو يقهقه وقال :
صحيح يا ولدى أن ابنتى مثلى فلاحه أصيلة ومتمدينة
دخيلة ، ثم أردف وهو يتسم كالعائب ، كل مصرى يا ولدى
فلاح وابن فلاح ، وأن موارد رزقنا مهما تنوعت وتباينت

لا تنزعنا من الأرض ولا تقصينا عنها، لا لأنها أرض أجدادنا
 وآبائنا الأقربين، بل لأنها رمز خلودنا وبقائنا وعنوان مجدنا
 ونفخارنا أليس كذلك؟ ثم أردف ألا بربك قل لى يا ولدى من
 منا الوزير الخطير أو الموظف الفقير الذى يكون بعيداً عن
 الأرض غير لاصق بها؟ لا تلتفت يا ولدى إلى الدخيل على
 مصر وأهلها فهو الوحيد من مستوطنها البعيد حقاً عن الفلاح
 وحياة الفلاح وعن طيبة قلب الفلاح وصفاء سريرته، وإذا
 رأيت رجلاً غريباً عن مصر لصيقاً بأرضها فاعلم أنها اقلته
 وطوته فجاء كأنه من تراب وروح أجدادنا وروحهم. ما
 أكثر الأمثلة يا ولدى على قدرة تربة مصر على هضم كل وافد
 عليها، فالسعيد السعيد فيما أعتقد هو من يعود إليها يعطيها من
 عرقه وجهده فتعطيهِ من خيراتها وقلبها

على هذا الأساس أخذت أدخر أثناء اشتغالى فى دوائر
 الحكومة ما تيسر لى ادخاره من المال أشتري به سهماً فى أرض
 أضمه إلى قرارىط أملكها، وبذلك جمعت بضعة أفدنة، فلما
 بلغت سن التقاعد عدت فلاحاً إلى أرض آباءى وأجدادى
 أنفض عن اخلاقى ما علق بها من غبار الوظائف وأطهرها من

الجلسة بما عرفت من خلائقها التي ذكرها والدها، وسأ تزود بمعرفة
مزايها في الجلسة الثانية وقد تواعدنا على أن يكون انعقادها
بدارها في عشية اليوم التالي

توهمت لو أني رحت ماشيا إلى بيت خطيبتى لكنت رأيتنى
أقطع الطريق في خطوات عسكرية متزنة في عرض رسمى ،
مرفوع الرأس ، بارز الصدر ، ألوح بذراعى رفعا وخفضا ،
أبصم الأرض بصما بوطأة توقيعية حادة ، أرسم صورة واقعية
«للماشى على الأرض مرحا» قلب فرح ضاحك يدفعه المرح
إلى الخيلاء المتواضع ، والبال المطمئن ، والامل المحقق ، هكذا
كنت أمشى فى الطريق

عند مدخل الضيعة لقيت حمى فى انتظارى ، وقد تحقق
ما خمنت من أن المنزل الوحيد المبني بالحجر لا بالطين من
طابقين هو بيت خطيبتى لا سواه

كل ما فى الدار متواضع ، واسكن فى تواضعه تنسيق
ونظافة بل هو نموذج لما يجب أن تكون عليه منازل القرى
استمعت للشيخ وقد استقبلنى فى ساحة الدار يفرجنى على
حظيرة الدواجن وتقسيم أقفاصها ، ويصف طريقة ابنته فى

تربيتهـا . رضيت بالاستمهـال ساعة ذاك ، وكنت أتمنى لو أثب
إلى الدار وثبـا ، ولكنى رحت أسأله عن قنّ الدجاج ، وأوكار
الأرانـب ، وزريبة الجاموسة والنعاج ، وبرج الحمام ، وخلايا
الزحل فى رصات متباعدات الأوضاع . وقد جمال فى خاطرى
فى تلك اللحظة أن أجعل ساحة الدواجن فى دارتى فى ترتيب
فى يناسب مزاج خطيبتى

قلت : هل بعت دارتك الأولى تلك التى كانت لك منجـما
من الذهب ؟

قال : أجل لقد بعتهـا ولكن بربك لا تسألنى عن ماض
مضى بحوادثه وآثاره ، بل دعنى أفتح لك قلبى وأتخفف من
بعض ما يثقل صدرى من فرح موفور وسرور زائد ،
واستطرد يقول :

تابعت خطى حمى فى صعوده الدرج وقد تقدمنى إلى غرفة
ليست متسعة تجلـل نوافذها ستائر من الحرير المشجر ، ومقاعد
مكسوة من الحرير نفسه ، وسجادة من صنع بلاد العجم ،
وثرىـا تنعكس أضواء مصابيحها على ثلاث صور شمسية فى
إطارات مذهبة أشار حمى إلى واحدة منها هى صورته فى شبابه

وعلى الصورتين الآخرين لزوجته وابنته الوحيدة التي لم يعيش
من أولاده سواها

أطريت الرجل ما وسعني الاطراء ، وادعيت أن لا شيء
من ملامحه ونضارة وجهه تغير سوى ابيضاض شعره وخفة
شاربه وقد كان غزيراً ، فأجاب هذا إطراء تعود الشباب توجيئه
إلى من يطمئنون إلى المغالطة في العمر وهي مغالطة مستحبة ، غير
أن الحقيقة التي لا مرية فيها أنى تجاوزت خمسة أعوام من
سن التقاعد

قلت لا عبرة في عدد الأعوام لأنها تقدير زمني ولأن الشباب
يقاس بشباب القلب ودوام الصحة وأنت بحمد الله موفور العافية
في هذه اللحظة دخلت سيدة بدينة متهللة متشحة بوشاح أسود
يطفح السرور من وجهها تؤهل بي وترحب فعرفت أنها حماتي ،
ولم تكذب تجلس حتى دخلت الفتاة تلك التي رأيته في الطريق
ترتدى الثوب الذي رأيته ترتديه أول مرة وقد وقفت تبجيلاً
لها فحيتني باحناء رأسها وقد عرفها بي والدها مضيفا اللقب
الجامعي الذي أحمله ، وقال ها هي ذى ابنتي « صفاء » فهشت لى
وبشت ومدت إلى يداً ناعمة الملمس في وضع أوشك بأن

يجرأنى على تقبيلها

أخذنا نتحدث وما لبثت أحاديثنا أن تشاجنت وتنوعت
ولكن الفتاة لم تشترك فيها وذلك ما غاظنى وقد كنت تواقا
إلى سماع كلامها ، فقلت لها بنبرة ندت منى أحسست ببعدها
عن اللياقة وأدب الحديث أدعوها إلى الاشتراك معنا ، فقالت
فى هدوء يسرنى سماع حديث يفيدنى أكثر من سرورى بابرار
شخصيتى وتوكيدها بالكلام ، قالت عبارتها ببساطة تقرب من
الوداعة و بلاهة كأنها كانت من هيس الطبيعة وكأنى كنت
أستلمها ، وقامت فدعتنا إلى تناول ما تيسر من خير القرية على
قلته وتقدمتنا فتبعناها . ولعلى كنت أسبقهم الى غرفة تتوسطها
مائدة مليئة بأطباق من الجبن والزبد والقشدة والعسل والرقاق
فاحتسيت فنجانا من الشاى معطرا وأكلت حتى شبعت ، وقد
اختلف على معرفة ما إذا كانت أية مائدة من موائد المدينة أشهى
والذمن هذه المائدة الدسمة اللذيذة المنبعثة من قباب الريف
قال حمى وقد عدنا من غرفة المائدة، لقد احتججت بالأمس
على استعمالى كلمة « الظن » بدلا من كلمة « الاعتقاد » فهل لك
الآن أن تقول ما ظنك أنت وما اعتقادك ؟

أُجبت وأنا مطرق أن إيماني قوى لا يتزعزع لأنه من
 وحى قلبي واستشعار وجداني ، وبودي أن أسمع كلمة من
 الأنسة في إيمانها بي ، وهو شأنها الخاص والتفت إليها ، في هذه
 اللحظة فقط التفت عيني بعينها فإذا بوجهها يصطبغ بلون
 الورد ، ولحت سحابة شفاقة من البشر تكسو صفحة وجهها
 فجعلته أكثر وضاءة وأبهج رقة وجلالا ، وسمعتها تقول إن
 سعادتي رهينة برضى والدي العزيزين

سمعت أو توهمت أني سمعت زغاريد الفرح تصدح كأنها آتية
 من كل صوب يشترك في تغريدها أبي وأمي وإخواني وأهلي
 وصحبي ومعارفي ! ولم أنتبه إلى كلمة التبريك تفيض من قلب
 حمي وحماتي ، بل قمت فأخرجت من جيبي علبة مكسوة بالمخمل
 الأزرق فيها سوار من ذهب محلي بالماس المكشوف سورت به
 معصم خطيبتى وختمتها خاتما من الذهب ثم كلفتها أن تضع لي
 خاتم الخطبة في بنصرى ليكون عريون تقيدها قلبي بيدها ،
 ولما فعلت انحنت على يدي تقبلها فقبلتها في جبينها وسمعتها تتمم
 وكأنها تتعهد بأن تكون وفية لزوجها ساهرة على راحته
 وسعادته ، أمينة على ماله وبيته ، ورأيت أبويها الشيخين يبكيان

فرحت أسكب دموع فرحى على كفيهما

فى تلك الليلة السعيدة ضقت ذرعا بمدينة طنطا وبمديرية
الغربية كلها ولم أعد أطيق البقاء فيها ليلة أخرى بين جدران
حجرة ضيقه فى فندق المدينة الوحيد

ركبت سيارتى ورحت أقودها بسرعة تتناسب مع
انفعالات نفسى أو ومضات شعورى ، كنت أسرع كأنى
أتمت عملا كنت مكلفا بإيجازه

كنت أجدّ وأمعن فى السرعة بغية الوصول إلى العاصمة
التي تعج فيها الحياة ، ويضطرب الوجود والحركة ، والتي
تشارك كل طبقات قطانها فى اجتلاء الراحة بعد العمل ،
والسرور بعد الكسب ، والفرح بعد العناء . كنت أسرع بغية
الهروب من جمود ما أقتله للغريب فى مديريات ومراكز مصر
وللوصول إلى أصحابي ألقاهم فى ندواتهم ومجالسهم أشركهم
معى فى فرحة نفسى

وكنت أبطئ فى السير كأنى أجارى السلحفاة بغية
الانسياق فى انسراحة ليننة هادئة أستعيد فى ذهنى بعض
ما سمعت من أجوبة «فلاحى» ذات الذهن الصافى وأستعرض

في مخيلتي بعض ما استماحت من حلاوة «صفائي»

..... وبلغت المدينة ورحلت أجوس مباءات الصحاب فإذا

بها كلها خالية منهم أفتش عنهم في كل مكان وفي كل حي فلا أجدهم

لقد صدمني تغيب أصحابي فأحسست بالضيق والانقباض ولكن

خاطرة من خواطري المفرحة محت بلحظة كل ما ألم بي وقلت

علام أعجب لأحكام القدر في تصرفاته ، ولم لأفلسفها فأجعلها

مصادفة ؟ ولكن ... أمن المصادفة أن لأجد رفيقا واحدا أو

صاحبا أشركه معي في فرحي في تلك الليلة السعيدة ؟

يمت حانة يقصدها بعض الرفاق في أيام العسر الأخيرة

من أشهر الموظفين ، فتلقاني خدما بالترحيب أما رفاقي فلم

أجد منهم أحدا

عن لي أن أتخذ من خدم الحانة شبه الخالية من روادها

رفاقا لساعة واحدة ، وأن أدخل الفرح على نفوسهم والسرور

على قلوبهم نكاية بالقدر الضاحك مما قدرت ، وسخرية بالمصادفات

المعاكسة غير المواتية. رغبت إلى صاحب الحانة وهو يوناني قديم

أن يشترك وخدم الحانة معي في شرب كأس أقدمها اليهم ، ضحك

اليوناني ورفع سبابته في وجهي وأخذ يحرك يده يمينا وشمالا

ويقول لا . . . لا أبداً . أتريدنى أن أبيعك الخمر وأسكر منه ؟
 ماذا جنيت يا سيدى حتى تحملنى شر خطايا الخمارين ؟ ورفض
 بإياء قبول دعوتى

لم أضحك من عقيدة الخمار لأنى تذكرت منظرأ ما زالت
 صورته مطبوعة فى ذهنى ماثلة أمامى : قنديل من الفضة ، مضاء
 بالزيت . أمام صورة العذراء مريم ، فى غرفة سيدة تباع المتعة
 لكل طالب . فإيمان تلك المرأة المومس بالغفران يماثل إيمان
 ذلك الخمار باقتراف المعصية لو قبل دعوتى

انصرفت من الحانة رضى النفس ، قانعاً بأن المصادفات هى
 التى صيرها الانسان إلى حال دعاه «القدر» وأن عنعنات العقل
 هى التى ألبسته حلة مزركشة ونفخت فيه طبيعة الضحك مما
 يقدره الانسان ، وتمادى العقل فى جهالته فجعل لكل شىء قدراً
 وشبه قوة القدر بقوة القادر

عدت إلى البيت وقبل أن أتوسد فراشى ، كنت مقتنعاً بأن
 فرح النفس هو منها واليها ، ونمت ملأ جفونى

ليست العجلة يا صاحبى من طبعى ، بل التأنى والتريث هما
 الخلتان الغالبتان على ، ولأنى (إن عن حرص أو عن تردد)

لا أبتّ في أمر من الأمور إما حرصاً وأما تردداً إلا بعد تقليبه
على عدة وجوه ، أما في ذلك الأسبوع فقد خرجت على
طبعي ونبذته ، وتخلقت أخلاق الحاكم المطلق ، ينقذ ما يريد
وقد تكون إرادته مجرد بدوة أو خاطرة ، أما إرادتي فلم تكن
سوى العمل على إرضاء خطيئتي وإسعادها

لقد بدلت دارتي في ضاحية الزيتون من حال الى آخر
وطهرتها تطهيراً ، وما كاد النقاشون والدهانون يتمون عملهم حتى
ذهبت مع المهندس الاخصائي في تنسيق أثاث البيت ننثقى من
الرياش أجملها ، ومن أدوات المنزل أمتها ، وزودتها بما يلائم
الذوق العصري من المخترعات الحديثة التي تعين على الراحة
والرفاهية ، ثم أعفيت خادمي الخلاسي الأمين من خدمتي ،
واستبدلت به زنجياً فاحم البشرة حاد النظرة لا يعرفني واستأجرت
عاملاً للحديقة رسم له المهندس كيفية تنسيقها وزرع الأزهار
وغرس الأشجار ، لقد بدلت كل شيء من معالم الدارة وعلقت
على بابها لافتة من النحاس عليها اسمي الدكتور بجامعة فؤاد
الأول ، حتى السيارة استبدلتها سواها شكلاً ولونا وبذلك
أكون محوت كل أثر من ماضى وحتى لا يكون أى تشابه بين

الدائرة الاولى أو المنجم الذهبي كما أسميتها أنت لاجعلها منجما للحياة
الزوجية المقدسة

وقد بدا لي ، بدافع من دوافع النفس ، أن أتجنب أصحابي وأن
أبتعد عنهم ، وتعمدت الا اخاطب واحداً منهم بالتلفون إلا
إذا دعيت الضرورة إلى ذلك . وقد ملت نفسي على الفرح
المجنون الذي اخرجني عن طورى ليلة عدت فيها من طنطا
وقد تمت خطبتي ، لقد لمتها وعنفها على اندفاعها في فرح يجب
أن يكون لها وحدها لا تشرك فيه أحداً من الناس

بعد ايام تجاوزت العشرين ، ذهبت إلى طنطا دون إشعار
والد خطبتي بمقدمي ، وبعد ساعة الغروب أو قبيل العشاء
وصلت إلى الدار في الضيعة السعيدة فكانت مفاجأة لطيفة لحبي
وحماتي وسارة لخطبتي التي بدت الراحة على وجهها . وقد
استقبلوني بترحاب ما لبث أن توشى بالعتاب على انقطاع دام
حوالي ثلاثة أسابيع ، ثم باللوم على سكوتي عن السؤال عنهم
أو اطلاعهم على السار من اخباري
انتحلت أعذارا بادية الهوان لأنني تعمدت إخفاء ما بذلت

من جهد من سبيل اصلاح دارتى وتبديل مظهرها . وكان القصد
من الكتمان إتمام عناصر المفاجأة التى اعددتها لخطيبتي ذات
النظرات الفاحصة المستفسرة الباسمة

كانت زيارتى مفاجأة سارة لنا جميعا ، أما بالنسبة لى فقد
رأيت خطيبتي لأول مرة تلبس ثوبا هو الذى كانت تصبو نفسى
إلى رؤيتها ترتديه ، تعصب رأسها بمنديل أحمر محلى بزهرات مفتحة
من المخمل بيضاء ، كانت أشبه باكليل من الياسمين حول رأسها ،
وقد تجلت صباحة وجهها على طبيعته من البساطة الحلوة ، فلم
أستطع إلا إبداء إعجابى بمنديلها وزهراته ، والثناء على ذوقها
السليم فى ذاك الهندام البسيط . ثم عطفت على حمى ، وقد أخذت
أدعوه عمى ، أحمد جلبابه الأبيض الفضفاض ذو الاكمام
الواسعة والصدر المفتوح ، فقال ألم أقل لك يا ولدى أن
المصرى فلاح بفطرته ، وأن الفطرة هى التى هدت به إلى اختيار
لباسه المناسب لحالات الجو

لعمى براعة فى الحديث وفى الاستدراج الى الكلام ،
فما كدنا ننتهى من تناول الطعام الشهى الذى قدم لنا ، واحتساء
الشاي المعطر ، حتى سألتى عن الحالة العامة فى القاهرة

وعن المصير المظلم الذى يصير الشعب إليه

قلت لحيطان القاهرة آذان تسمع شكايات الناس وتزمرهم

وتنقل غمغماهم مجسمة إلى القصر مشبعة بالتهويل

قال أياهمرك ريب فى أن رب القصر الغارق فى فسوقه

وفجوره يعلم شيئاً من شكايات الشعب ؟ وهل تظنه يعير

تزمم الامة أذنا صاغية ؟ استمع إلى دار الاذاعة ، وأقرأ ما تخطه

أقلام كتاب الصحف ورؤساء تحريرها واصغ إلى قصائد

الشعراء وأغاني المغنين تجدها كلها تسبح بحمد جلالة مولانا

الملك الصالح ، إنما الذين يتلصصون ويتجسسون ويتبعون

أخبار الامة هم زبانية الملك ورجال حاشيته

قلت : الحرص يا عماه يقضى تجنب الشيطان الرجيم

والاستعاذة بالرحمن الرحيم

تقبّض وجه عمى ، وقد شعرت من تملله بأنه يكظم ما

جاش به صدره وقال ، نحن فى ضيعة بعيدة عن مركز المديرية ،

والمديرية بعيدة عن العاصمة ، والعاصمة تعج بملوين من السكان

منهمكين فى الكدح لكسب القوت ، فإن تدمرت حفنة من

رجالها فان تدمرهم لا يعدوا أن يكون بكاء على منصب تولاه

سواهم ، وغنيمة كانوا يرون أنهم الأحق باغتنامها ، أما إذا
تكلّمنا نحن هنا في هذه العزبة المتناهية في التواضع . فإنما قلوبنا
هي التي تتكلم والقلب يا ولدي لا يقول الا الصدق
خجلت من هذا التقرير المستتر فقلت : إن في العاصمة
ألسنه تتكلم لصالح المصلحة غير الخاصة ، وتوجه النشء توجيها
سليما لتكون منه الجيل الجديد

ضحك عمى ضحكة تنز بالآلم ، وقال يؤسفني أني ولجت
الموضوع من باب الواسع وغفلت عن المدرس بالجامعة ، فيحسن
إذا أن نقاب هذه الصفحة من الكتاب لتلوسطورا من فصل
آخر من فصوله العديدة

التفت الى خطيبي فإذا بها مطرقة ، أما حماتي فقد كانت
الكلمات تتراقص على شفتيها ، فقلت لها ، أحسب أن حديث
السياسة قد لا يرضيك فأجابت على الفور ، كيف لا يرضيني
حديث نشترك فيه كل ليلة ونستمع إلى آراء زوار البك
وأشارت الى زوجها من موظفين في الدواوين ومن متقاعدین
يقرأون الصحف ويتجادلون ، ومن فلاحين يسمعون ما
يقال لهم ولا يقرأون

قلت أالفلاحين رأى يعتد به ؟ فأجابت
 أن الفطرة السليمة تستنتج الإسنتاج الصحيح
 التفت إلى خطيبي فاذا بها زالت مطرقة فقلت لها ،
 هل يوافق رأى الآنسة فى السياسة رأى حضرة البك
 عمى ؟

فأجابت وهى تبسم ابتسامه خفيفه ولكنها لم ترفع نظرها
 الى ، لا شأن لى بالسياسة ولا بمحترفيها ولا بالخصومات
 والاحزاب ، انى وامى نكتفى بسماع الجدل الصاخب كل
 ليلة من خلف هذا الباب

قلت أليس لك رأى خاص فى السياسة ؟
 قالت رأى أن لا يكون للمرأة رأى يتخطى عتبة بيتها
 لقيت نفسى لأول مرة فى وسط لا محيد لى فيه من أظهار
 شخصيتى أو طمسها ، وأن لا منجاة لى إذا عملت المداورة
 والالتواء أو ترك الامور إلى مشيئه الله يحولها من حال الى
 حال كالتى تعملها فى مجالسنا فى القاهرة خوفا من ألسنه الوشاة
 وتهربا من العواقب الوخيمه ، ورأيتى برغمى أندفع فى الكلام
 عن الملك الفاجر المشتهر المستهين وهن حاشيته والمقربين منه

وكلهم ساقط الخلق يتحكمون في الناس كما لو كانوا حكاما مطلقين، يرفعون هذا الزعيم إلى مقعد الرئاسة ، ويقصون رجال ذلك الحزب عن مقاعد الحكم والنيابة ، لا يرفعون ذلك الزعيم إلى سدة الرئاسة ولا يبعدون الزعيم الآخر عنها إلا بعد أن يضعوا أرسنة في عنق هذا وذاك ، مقاوئدها في أيديهم ، يجرونهم من هذا الصوب إلى ذلك ، بغية الإبقاء عليهم عبيدا أمناء على خدمة الملك إرضاء للطاغية الفاجر المستهتر المستهين ، أما وزراء الدولة الذين يسرقون الأمة الفقيرة فقد كانوا يقاسمون رجال الحاشية الغنائم والأسلاب ، وهو لا يشاركون الملك بها ولذلك أهدروا الكرامة ، وهانت عليهم نفوسهم ، وانكفأوا جميعا يمسخون الأعتاب بذقونهم ، ويتمرغون بالأوحال خدمة للغاصب المتربص ، وقد باعوا ضمائرهم لشياطين المال والغوايات ، وأما شيوخ الأمة ونوابها فقد راحوا في كل ناحية وصوب وفي كل طرف من أطراف المرافق العامة والخاصة ينهبون ما تصل إليه أيديهم الطويلة واطمأعنهم الخسيسة ، ولم أنس يوم أعلنوا في دار النيابة تحت قبة البرلمان ، أو أعلنت أغليتهم التي كانوا يسمونها

الساحقة الماحقة « تمتهم برضا جلالة الملك وثقته بهم » غير عابئين بالآمة التي أنابهم للكلام عنها

قال عمى : لقد أجملت الوصف لما يعرفه كل فرد من أبناء هذه العزبة ولم تزد حرفاً على ما يعرفه كل مصرى سواء كان فى أعلى الصعيد أو فى قلب الريف أو من سكان البنادر والمراكز والمديريات . لقد وصفت الحال الواقع وسكت عن الرجعية التى نئن منها ولم تصف الدواء ، ولم تقل ماذا يجب علينا أن نفعل

قلت بلمجة تجمع بين الجد والفكاهة ، لقد وضعت الخطة ، أجل لقد وضعت الخطة وأحكمت تخطيطها ، وقسمت الجبهة إلى جناحين وقلب ، وقد أسندت إلى حضرة البك عمى قيادة الجناح الأيمن ، وقيادة القلب إلى حضرة الأنسة « صفاء » أما أنا قد نفذت أوامر الإيحاءات الوجدانية فأتممت تأييث بيتى وفرشته بما استطعت من الرياش لأقدمه هدية لحضرة الأنسة « صفاء »
العزيزة

قشعت عباراتى تلك السحب التى تلبدت فى جو أول

اجتماع عقدناه وتجلت البشاشة على وجوهنا وعلى وجه
عمى بنوع خاص فقال لى :

لقد أحسنت يا ولدى الانتقال بنا من موضوع يؤلمنى
إلى آخر هو فرحتى قبل الفرحه الأخيرة

قلت أية فرحة أغلى من فرحة زواج ابنتك الوحيدة ؟
قال فرحتى الكبرى يوم ارتحال آخر جندى من جنود
الاحتلال عن وطنى مصر

قلت أقاطع عمى هى تلك فرحتنا العظمى ، والتفت أتزود نظرة
من خطيبتى القابعة فى مقعدها تتلقط الكلام بالإصغاء والانتباه
لقد نفذت الجانب الأول من الخطة الموضوعه الواجب
على الرجل المجد فى بناء عش سعادته الزوجية تنفيذها ،
وتركت لحضرة الأنسة تنفيذ خطتها وهى حرية اختيار
ما يلائم ذوقها من الثياب من متاجر القاهرة ، أما العبء
غير الثقيل فقد ألقته على عاتق سعادة البك عمى وهو إحضار
المأذون لعقد الزواج ، ألا يرضيك تقسيمى العمل على
هذا النحو يا عمى العزيز ؟

قال عمى وقد تحرك في مقعده حركة العازم على التخفف مما سيقول ، لقد أحسنت أيضا فتح باب الحديث في أمر تدارسناه أنا وزوجتي وابنتي ، وقد بيتنا العزم على الافضاء إليك بالحقيقة الواقعة ، وهى أننى أنا وهذه ، وأشار إلى زوجته ، لا نملك شيئا من حطام الدنيا سوى هذا القفطان الذى ألبسه والحلة التى ترتديها ، أما الأفدنة العشرة وهذه الدار المتواضعة والعشرات من الجنيهات المودعة فى بنك مصر فهى كلها ملك خالص لحلال لابنتى . وابنتى « صفاء » هذه كفء فى إدارة شئونها بالاتفاق مع زوجها ، وأزعم أنها سترضى أن تقيمى ناظراً على إدارة أطيانها المدة الباقية لى فى الحياة ، بشرط أن تبقى لنا نحن الشيخين هذا المأوى تتلصق فى كل ركن فيه وزاوية ذكريات ابنتنا التى نسأل الله أن يجعلها سعيدة فى زواجها مسعدة زوجها

قفزت « صفاء » من مقعدها وارتمت على والدها تشبعه تقييلا فى خديه وكفيه وقالت وهى تبكى « أنا ابنتك التى عرفتها يا أبى وإنى سأعمل أنا وزوجى على إسعاد

أبي وأمي كما أسعدتاني طول حياتي ،

اعترضت طريق خطيتي في عودتها إلى مقعدها ، وهزنت
يدها هزة الكبار والاعجاب والعهد ، وقدمت إليها ورقات
مطويات فيها بيان مفصل لجميع محتويات الدارة غرفة
فغرفة ، وأدوات المنزل أداة فأداة ، هي كلها بكامل محتويات
البيت ملك لها ولم أستثن سوى كتيبي الخاصة ، ثم سلمتها مظروفا
فيه أوراق نقدية لنفقها الخاصة وهيمت بالانصراف

إستمهني عمي وقال : يظهر أنك محبّ للمفاجآت
تحسن تدبيرها وتسرف في المبادرة بها ، والتفت إلى ابنته
يسألها ما تلك الأوراق التي في يدها ، فلما فضّ الغلاف
ولقى أوراق النقد قال هذا شأنك مع زوجتك والسخاء
عليها ، وردّها إلى ابنته ، ولكن ما هذه القوائم ؟ وأخذ
يقرأها ثم عاد يتلوها بصوت عال ، أما أنا فكنت أنقل
نظري من خطيتي إلى أمها وبالعكس وأرى أجنحة الغبطة
ترفرف عليهما فترسم ألطف القسمات على وجهيهما ، وقد
عبّرت حماتي عنها بدموع انحدرت بانسجام ، كما عبّرت
عنها خطيتي بهدوء دلي على قدرتها على الانطواء على نفسها

شأن أكثر نساء الريف

نهض عمنى من مكانه وقال يحاكينى فى لهجتى التى
أمرج فيها الفكاهة بالجد ، ما هذه الدكتاتورية يا دكتور
ولم الاستبداد والتحكم ، لماذا تنفرد بالعمل وحسبك
وتركنا نحن فى الفراغ ؟

نظرت حماتى إلى زوجها دهشة من لهجته فى كلامه ،
أما أنا فقد توقعت منه المعابثة والمباشطة فإذا به يقول ،
من حقى أنا وحدى أن أسجل باسم « صفاء » ابنتى الوحيدة
كل ما أملك دفعا لقيام بعض الأقارب للمطالبة بنصيبهم
من الارث بعد موتى ، أما أنت يا حضرة الدكتور فبأى
حق تفرش بيتاً من ست غرف بنفيس الرياش وتزوده
« بفريجيدير » وأشياء أخرى لا أعرف كيف ألفظ اسمها
ولا الغرض المقصود من إستعمالها وتدعى فوق ذلك أنك
تسلمتها منى قطعة فقطعة وأنتك المسئول عنها فى حين يمكننى
أن أقسم أغلظ الايمان غير حانت أنى ما أنفقت فى ثمنها ملياً
واحدا ولم أرها إلا وهى فى منزلك ؟ ثم خفف من حدته
المفتعلة ورقق صوته وقال : لا يا دكتور أنت ديكتاتور محب

للاستبداد ، لأنك تعمدت أن تنزع من قلبي وقلب زوجتي العجوز فرحة إختيار جهاز ابتنا بنفسنا ، وفرحة إظهار إختباراتنا في اتقائه ، وفرحة إبراز معرفتنا في مثل هذه الأمور وسواها ، وفرحة إختصامنا على نوع السجاد أ يكون من العجم أو من أزمير أو مصنوعاً في أسيوط من صوف أنعام مصر بأيدي مصرية . ومئة فرحة من أنواع أخرى ؟

قلت أقاطعه : لقد خففت عنكما أعباء هذه السخرة المرهقة ، وكان من الواجب أن لا أفعل ، ولكني أسرع في تأثيث البيت لأنني أحب السرعة ، لا تنس يا عمي العزيز أن الجنون النوعي يبعث على السرعة ، وإني مجنون حقاً بحب خطيبي التي لا تتكلم إلا إذا دُعيت للكلام ، فإذا كنت تخشى في تمادي في الجنون وتتمنى لي الشفاء العاجل ، فعليك بإحضار المأذون على عجل بدون تمهل ضحكنا طويلاً ونحن في فرح وسرور ، وهمت أستأذن للأشراف ، نظر إلى عمي دهشاً وقال تنصرف إلى الفندق ؟

قلت لا ، بل أذهب إلى بيتي

قال بيتك فى القاهرة ؟

قلت أجل وفى عزبة الزيتون فى ضاحية القاهرة

قال وأى قطار ينقلك الآن إلى الزيتون ؟

قلت سيارتى هى التى تنقلنى وبعد ساعة أكون فى بيتى

قال أين سيارتك تلك ؟

قلت أودعتها المرأب الكائن عند ميدان الساعة

التفت إلى زوجته وقال أحمد الله كثيراً على أنه

لم يحضر بسيارته إلى هنا لأن أهالى القرية كانوا «أكلونا»
بعيونهم الحاسدة

وقفت للوداع ، فاقتربت خطيبتى تسألنى متى أعود ،

قلت فى مثل هذا اليوم من الأسبوع القادم ، قالت سنتظرك

عصر يوم الخميس المقبل ، والتفتت إلى باقة الزهر التى

حملها من القاهرة هدية لها ، فانزعت منها وردة حمراء مخملية

علقتها بعروة سترتى ولم تثبت ببنت شفة

لم أذهب إلى طنطا فى الميعاد ، بل طرقت باب بيت عمى

وكان الوقت قليل الظهر ، ومن عجب أنى وجدت خطيبتى فى

انتظاري ، وكذلك عمي وحماتي إلا أنهما كانا في هيئة
الطفل الحردان بعكس خطيبتى فقد كانت تبسم
قلت ما هذا ؟

قالت حماتي أنت السبب
سألت نفسى عن الداعى إلى هذا ، فلم أفر منها إلا
بجواب تفسيرى واحد وهو أن خطيبتى استشعرت
المفاجأة ، فخمّنت أنى سأحضر قبل الميعاد ، فتهيّئت لإفساد
المفاجأة وقد نجحت فى إحباطها
وجهتُ إلى خطيبتى نظرة إستفسارية فإذا بها تبسم ،
أما والدها فقد أخذ بلهجة الخطاية يقول وهو رافع يده اليمنى
وناصب سبابته

واحد من أمرين ، إما أنك استسرّيت « صفاء » بأن
ستحضر إلينا قبل الظهر ، أو أنّها اكتشفت بدهائها شغفك
بالمفاجآت فخمّنت فصحّ تخمينها ، وفى كلا الحالين خسرت
أنا وزوجتى الرهان وربّحت « صفاء » بارك الله لها فيما ربّحت
سرحت سرحة ذهنية أسائل نفسى هل هى بديهة فطرة
سليمة ، أو رهافة حسّ ، أو استشعار هو فى المرأة أكثر

منه في الرجل ؟ ولم أطل الوقوف عند هذا السؤال بل رحت أمرح في فرح ، وأتكلم بسرور أسأل بغير كلفة عن طعام الغذاء والأوزة المذبوحة ، وقد سال لعابي وأنا أطلب من حماتي أن تزود المائدة بالبصل المخروط يزيد في الملوخية طعماً ونكهة

في ذلك اليوم اتفقنا على كل شيء ، لقد حددنا موعد حضور المأذون والشاهدين ، واقتصرنا على أن لا يحضر الاحتفال سوانا ، غير أنه شجر بيني وبين عمي شجار لم تقو حماتي التي لا تفارقها الإبتسامة ، على فضّه ولم تحسمه سوى خطيبي « صفاء »

لم تكن « صفاء » عادلة في حكمها ولكني نزلت عليه غاضباً راضياً ، ولم تكن حماتي عادلة برغم أنها كانت تساندني وتؤازرنني وتدعو زوجها وابنتها إلى النزول على إرادتي ، ولم يكن عمي عادلاً أيضاً ، لأنه أصرّ على رفض اقتراحي وردّ طلبي وعلى عدم قبول رجائي وقد عزّز إصراره بقسم عظيم ولكنه عاد فنزل مثلي على حكم ابنته ، لقد نزلنا كلنا على

إرادة من هي أصغرنا طائعين حكمها مدعين لإرادتها لأنها
عزيزة علينا ، وقد حكمت

أولاً : بأن أحدد بنفسى مبلغ الصداق المعجل والمؤجل كما
يطيب لى

ثانياً : تعترف هى ووالدها بأنهما قبضا المبلغين
العاجل والآجل مقدماً نقداً وعداً

ثالثاً : تقر وتعترف بأن غرفة مكنتى بكافة ما فيها
من كتب وخزانات وأثاث وسواها فى عهدتها وهى مسئولة
عنها لأنها ملاكى الخاص

وقالت تعقب على الحكم أن ما لديها من المال
المدخر فى البنك وما أعطيتها من نقود هما أكثر بكثير
مما يلزم لشراء الملابس التى سوف لا تشتريها إلا بمعرفى .

بينما كنت فى طريقى عائداً إلى القاهرة كنت أصفر
أو كنت أحاول ذلك ، ولكنى لا أحسن التصفير ،
ولا إخراج النفس ، حتى ولا الاقتراب من الأنغام التى كنت
أريد أن أعبر بها عن سرورى ، ولما أعيتنى شفتاى وقد

كنت أزمّهما بشدة تارة، وأفتحهما برخاوة تارة أخرى،
ولما ضقت ذرعاً بأنفاسي تخرج مرة قوية عالية كأنها
زمارة الانذار، ومرة خافتة كأنها ريح من منفاخ، ولما
مللت هذا النشاز الصارخ، رحت أغنى بصوتي الصواني
الأصم، أغنية لا أدرى كيف علقت بذهني ولا عمن اقتبسها
من المغنين، أمن « أم كلثوم » أم « عبد الوهاب » أم من
« فريد الأطرش » ولكني كنت أغنى وأهيص وأقول :
يا عزيز عيني أنا بدي أروح بلدي

أبرقت إلى عمي أطلب منه السماح بتخلفي عن الحضور
لأسباب تدعوني إلى البقاء في القاهرة، ولم يكن
يخطر في بالي بأن تلك البرقية على ما فيها من بيان واضح
لضرورة عدم مغادرة القاهرة في ذلك الأسبوع، تسبب
قلقاً وبلبلاً وهو اجس لعمي وزوجته وابنتهما، وأبت
مروءة عمي الشيخ وأريحته إلا أن يقف إلى جانبي في
القاهرة

... ولقيني في فناء الجامعة واقفاً مع زمرة من

الأساتذة زملاء ، فهرولت مسرعا استقبلته بدهشة وأسأله
عن الباعث إلى مجيئه وهل من تركهما في البيت بخير
وعاقبه ؟

أجاب بهدوء ، ذلك الهدوء الذي لمسته فيه يوم التقينا
أول مرة ، وبابتسامة حلوة كالتي طالعت بها يوم اجتماعنا
الأول وقال : إن « صفاء » وأما بخير إلا أنهما قلقتان
هليك من جراء حوادث القاهرة ، لذلك أسرعت بالجيء
للطمئنان

قلت حسناً فعلت ورحت إلى زملائي أساتذة الجامعة
أستأذنهم بالانصراف ، ثم إلى حضرة عميد الكلية أفضى
إليه رغبتى في التخلف عن الحضور لوقت قصير وعدت
إلى عمى فأجلسته إلى جانبي في سيارتى ورحنا نطوف
شوارع القاهرة التى ما زالت النيران مشتعلة فيها

ولم نستطع اختراق شارع سليمان باشا ولا الشوارع
الأخرى القريبة منه لأن النيران قد امتدت إليها تسابق
أيدي السلايين ، وكذلك لم نقو على اجتياز شارع فؤاد
الأول ، لأن النار ما برحت تأكل محلات « شيكوريل »

ولا شارع إبراهيم باشا لأن فندق « شبرد » تحول إلى
 أتون تلذع شواظه كل مقرب منه ، وكنت أهدى السير
 أتفادى الاصطدام بالمارة أو بالغوغاء المتجمعين في الشوارع
 يتحرشون بي وبأمثالي من أصحاب السيارات واتجهت صوب
 عزبة الزيتون

كنت أنا وعمي في شبه ذهول من هول ما رأينا في طريقنا
 من حرائق تمتد الى الشوارع البعيدة عن وسط المدينة ،
 أما ذهني فقد كان ملبدا بغيوم قائمة من بعض ما ترمى إلى
 من تصرفات رجال الوزارة القائمة بالأمر ، وبما نقل إلينا
 من عبارة نسبت إلى الملك قائلها لضباط الجيش وقد كانوا
 ضيوفه في قصر « عابدين » في ذلك اليوم الشؤم ، ومن
 موقف عظيم وقفه رجال بلوك الحفر وبعض رجال
 البوليس ومعهم بعض العمال وطلبة المدارس ينادون
 بسقوط « فاروق » وبقيام زبانية البوليس السياسى ،
 أبالسة الشر يلقون القبض على كل رجل أوفى يتوسمون
 فيه روح الحرية يزجون به في السجون بدعوى أنه من
 لصوص الحريق

كل هذه الأمور والمشاهد وسواها أذهلتني عن وجود
عمى معى وقد جاء خصيصاً من عزبته للاطمئنان على والبقاء
معى فى بيتى ، ولقد تحاملت على نفسى وأخذت أرحب
بعمى وأهل فإذا به يستوقفنى بإشارة من يده وأخذ ينشد
أن دام هذا ولم تحدث له غير

لم يبك ميت ولم يفرح بمولود
وردد إنشاد البيت أكثر من مرة فقلت له إن دوام الحال
محال ، فقال : هذا صحيح ولكن التغير متى وكيف يكون ؟
وهل نحن أهل لأحداث تغيرات ذات بال ؟ فأجبت :
كنت قلت لى أن لحوائط القاهرة آذاناً تسمع وألسنة
تنقل ، أليس الأخلق بنا أن نعود إلى عزبتنا وأن نبقى فيها
بعض الوقت ؟

قلت هو ذاك وقت إلى حقيبتى فوسقتها بما يلزمنى
من ثياب ، وحملت معى ما نحن فى حاجة إليه هناك من
زاد ومؤونة ، وقلت لخادمى أن ينقلها إلى السيارة ، وأنى
سأتغيب عن البيت بضعة أيام

قال الخادم : ألا يريد سيدى تناول الطعام ؟

نبهى خادمى إلى واجب ذهلت من أدائه فرحت إلى عمى فلقيته غارقاً فى مقعده فدعيته إلى تناول ما تيسر من طعام ، وإذ كنا فى طريقنا إلى غرفة المائدة عرجت بعمى على الصالون وقد إزدانت جدرانها بصور فنية ، ثم إلى غرفة التدخين ذات المقاعد الوثيرة ، ثم صعدنا إلى الطابق العالى حيث غرفتا النوم بكامل زينتهما وإلى الحمام وتنسيقه البديع وإلى غرفة مكتبى بخزائنها المكتظة بالمجلدات من الكتب ، ثم غرفة الضيوف المعدة إعداداً خاصاً لراحة عمى وحماتى وإرضاء « لصفاء » التى ترضيها راحة والديها ، فكان يهز رأسه هزة الارتياح

..... لم تتكلم فى طريقنا إلى العزبة ، ولم أكن شارد الذهن بل كنت موجهاً كل تفكيرى إلى زملاء لى فى كليات الجامعة ، هل إنزعهم البوليس السياسى من أسرهم انتزاعاً قبل انبلاج فجر ذلك النهار ؟ أعرف من بينهم من لا يمت إلى الأحزاب بصلة ، أما عمى فلم أكن أعرف شيئاً لسكوته وشروده ذهنه ، أترأه كان يخال أنى من الفئة التى تعمل سراً على قلب نظام الحكم منكراً

ذاتها معرضة حياتها للموت في سبيل حرية الشعب واستقلال الوطن ؟ أو أنى أنتسب إلى طائفة هدامة لا يرتفع لها علم إلا على أنقاض دولة وجماجم شعب ؟ أو أنه يحسبني من أولئك الوشاة يتظاهرون بالجاه والغنى والنسب الكريم يقربون أبناء وطنهم ودينهم قربانا على مذبح المحتالين وزلفى لرب القصر وزبائنه من رجال الحاشية لقاء أجر سحت وورق حرام ؟ أو أنه يفكر في مستقبل ابنته الوحيدة ويرى أن سعادتها رهينة بمعرفة طوية صدرى ووقوفه على دخيلة أمرى ؟ أو أنه خائف حقاً على خوف والد حنون يرتبط هدوء باله باطمئنان بال ولده ؟

بينما كنت أقلب ظنون عمى بى وتوجسه منى ، أو بالأحرى بينما كنت أتوهم أنها شكوكه وريبه ، قفز إلى خاطرى فكر فجأى ما كدت أتبينه حتى تبينته وما لبثت أن ارتحت إليه وعقدت العزم على تنفيذه بلا إبطاء وقد ربطت راحة بالى ، ونقاء ضميرى ، وضمان مستقبلى ، وسعادة زوجى فى تحقيقه فوراً . ثم تبين لى بعد التمعن والروية أن التلكؤ فى تنفيذ فكرى يكون وسيلة لبقاى

أترنح بين كفتين ، رجحان الواحدة منوط بهبوط الثانية ،
وأن في الرجحان سعادة محققة وخير عميم ، وفي الهبوط
شر مستطير وشقاء قاتل لذلك أقول عزمت وتوكلت
.....بلغنا العزبة وما كدت أترجل عن سيارتي وأجتاز
عتبة الدار حتى رحت أتوقل الدرج قفزاً وقد وشيت
وجهي بالبشاشة وتسربلت بالفرح ، وسرعان ما سرت
عدوى مرحي إلى حماي فرحبت بي كثيراً وأهّات ، بيد أن
خطيبي كانت تلتزم الهدوء كعادتها ولا تفارقها الابتسامة
المطبوعة التي تتألق في عينيها ، أما عمي فقد تمهل كعاداته
في صعود الدرج وراح تواء إلى غرفته يتخفف من ثيابه
وقيودها وقد عاد يتدثر عباءة من وبر الابل ويشتمل بها
وقد دعاني إلى الذهاب إلى غرفتي التي أعدت لي وتقدمني
اليها وهو يقول هذي غرفتك المتواضعة ولا سبيل إلى مقارنتها
بما رأيت في عزبة الزيتون .

عضضت على شفتي إشارة بالصمت ، وتقدمت من عمي
أرجوه السكوت عما أعددت في بيتي من مفاجأة

ستكون سارة « لصفاء » يوم زواجنا

لم تكن شهيتنا مفتوحة للطعام رغم ما على المائدة من مقبلات ، ولكنى شربت الشاي المعطر ، وتذوقت طعمه بلذة ، أما عمى فقد أخذ يضرب كفا بكف ويحوقل وهو يلوى رأسه يمنة ويسرى ، فقالت له ابنته ، وكانت تلك أول مرة أسمعها تدير حديثاً ، خفف عنك يا أبى فقد أنصت وأمى إلى حديث المذيع فى وصف نكبة القاهرة ، أما أنت وقد رأيت بعينيك ما تصورناه نحن ، فمن الطبيعى أن يكون تأثرك أكثر من تأثرنا ، ولذلك أرجوك يا أبى بل أتوسل اليك أن لا تجعل نكبة الحريق حديث الليلة ، والتفتت تقول لى ألا تشترك معى يادكتور فى رجائى ؟

أجبت بحماس أنى موافق على رأيها السديد هذا محبذ فكرها الثاقب ، واقترحت أن يكون حديث الليلة عن فضيلة الشيخ المأذون وحضرات الشهود الأماثل ، وأرجو من حضرة عمى العزيز الموافقة على اقتراحى

لم يعر عمى كلامى التفاتاً وراح يتساءل لمصلحة من من الأبالسة حرقت القاهرة ؟ لا شك أن مصر المنكوبة وحدها

هى الخاسرة ، وأن فائدة المحتلين من هذه النكبة غير خافية على أحد ، ففى غد تنطلق صحافتهم ودور إذاعتهم تنفث سمومها ، تعلن فى العالم حطة المصريين وتأخرهم عن مواكبة العالم المتسدين ، وسوء فهمهم لأموورهم ، وتكالب رجال أحزابهم على المنافع الخاصة ، وتعصبهم الدينى على النزلاء الأجانب ؛ وبذلك تنتزع ثقة رجال المال والأعمال بمصر وأهلها ، ويتعثر دولاب الاقتصاد فى دورانه ، وعندها يزور أرباب الثروات من الأجانب عن تأييد الوطنيين فى مطالبهم ، ويساندون الانجليز فى بقائهم فى مصر ، لا حباً فى الانجليز أنفسهم ، بل لضمان تجارتهم وتوطيد مراكزهم

ولست فائدة الشيوعيين من نكبة مصر بأقل من فائدة الانجليز منها ، لأن الشيوعية لا تعشعش وتبيض وتفرخ إلا حيث الفوضى والاضطراب والفقر واختلال الأمن .

وهناك فائدة أخرى لمخلوق لا أسميه ، هو الخادم الأمين الأول للاحتلال والمحتلين ، والعبد المتطوع ، عن غير قصد ، لخدمة الشيوعية والشيوعيين ، وإنى لأكاد أقول يتضافر

الآبالسة الثلاثة ، الاحتلال والشيوعية وابليس الذى لا اسميه
على إحداث هذه النكبة ، التى لم تحلّ بعشرات من أصحاب
المتاجر مصريين وأجانب فحسب ، إنما حلت ويلاها بكل
مصرى على الإطلاق

قلت لعمى لأزبل ألما نفسياً فاض على وجهه : ما قولك
فى أن عواقب المصائب الكبرى تكون مقدمة للفرج
القريب

نهض من مقعده كالقناط ومشى صوب الباب ثم
التفت إلى وقال : لقد دنت ساعة العمل فويل لمصر
إذا توانت أو تباطأت ، وسدّد نحوى نظرة لا أنساها
واستطرد يقول : لقد أجهدت نفسك اليوم ، وتعبت كما
تعبت فالأفضل أن نأوى إلى الراحة

لقد تأثرت بكلام عمى الشيخ ، وأعجبت بحيويته وعلو
روحه ، ولكنى صمت ورحت أتلّس إلى غرفة النوم التى
أعدت لى .

من عادتى عندما أستلقى على الفراش أن أستسلم فى
دقيقة واحدة أو دقيقتين إلى النوم المعيق ، أما فى تلك

الليلة فلم يطمئن جنبي إلى فراشي اللين الوثير ، واكتلات
 عيناى كأنهما ترقبان أموراً تحذرانها ، فأخذت أتقلب أرقاً ،
 ولما أعيانى الملل ، نهضت من فراشى وقد أسندت رأسى بمرفقى
 ورحت أقلب الرأى فى أمرين : هل أرجىء زواجى إلى ما
 بعد انفراج الغمة وهى حتما قريبة الانفراج أو أتعجله وفى
 تعجيله نجاة لى من التورط والانزلاق

كنت عازما على دعوة المأذون لتوثيق الزواج ، وقد
 أبدت رغبتى تلك لعمى ، ولكنه لم يعرها اهتماما ، بل راح
 يقرعنى ويستثيرنى به ويستفزنى إلى العمل

صحيح أن عمى لم يوجه إلى كلمة خاصة ولا دعانى الى
 عمل معلوم ، ولكن ثورة نفسه أيقظت جوانب فى نفسى
 كنت أريد تركها هاجعة راقدة. ولأن استجابتى دعوته للعمل
 كما أفهمه معناه الانصراف عن الزواج، والابقاء على ابنته قابضة
 فى كنّ الوحدة والانفراد

تحيرت والله ماذا أفعل وكيف أتجه ؟ شيخ يضحى
 بسعادة ابنته الوحيدة من أجل وطنه ، وشباب خالون من
 أكثر التبعات (أنا واحد منهم) لا يعمل إلا لسعادة

نفسه ورفاهيتها على حساب وطنه !!!
 لقد عرفت أن بعيد الساعة التي ألقى زبانية الأبالسة
 فيها النار على متاجر القاهرة ومنازلها ، اجتمعت نخبة من
 شباب مصر الأحرار للتداول في أمور المستقبل ، ووقفت
 على القرارات التي أقسموا أغلظ الإيمان وأقدسها على
 تنفيذها ، ولكني وأقول لك الحق يا صاحبي جئنت
 أن أقرب منهم أو أو أعمل معهم . . . وانخلع
 قلبي رهباً ، لأنني أحب الحياة ، وأبغض المغامرة ، وأكره
 الموت ، وأخذت أردد بيتاً من الشعر لا أعرف قائله :
 على الذم بتنا جميعين وحالنا

من الخوف حال المجمعين على الشكر
 أخذت اهدي نفسي وارفع عنها مما أ جهد ذهني وكذا اعصابي ،
 ومن عجب أني قضيت ساعات الأرق الطوال في فكرة
 واحدة رددتها وراجعتها حتى أعياني تكرارها ، ولم يؤنسني
 طيف النوم الحبيب إلا بعد أن سمعت صوت مؤذن القرية
 وصياح الديك ، وزقزقة العصافير

نهضت من فراشي وقد مالت الشمس إلى الزوال

وأنا مضطرب الجسم ، فاقد الهمة ، فاعتذرت لمن أقلقهم
نومي الطويل ، وما كدت أسترد نشاطي وأستعيد طيبة
نفسي ، حتى رغبت إلى عمي في استدعاء المأذون لأنني لم أعد
أجد ضرورة للمهل ، ولا داع إلى التأجيل ، ولا سبباً
لبقائي بعيداً عن القاهرة ، ولما لم ألق منه ممانعة ، قلت لخطيبي
أن تعجل في شراء الضروري من ثياب العرس لأننا سنتشاور
على مهل في اختيار ما يلزم من ثياب تناسب الفصل وتسائر
الزى الحديث ، وبعد صلاة العشاء حضر المأذون وثلاثة من
معارف عمي لعلمهم كانوا من زملائه في الوظيفة ، فكتب العقد
وشهد الشهود ، وتقبلت تهاني المهنيين ، وبعد تناول العشاء
وانقضاء السهرة في الحديث عن عاداتنا القديمة وقيودها
الموروثة وتحلل الجيل الجديد منها ، وعقب انصراف
المدعوين وقفت أودع عمي وأشكره عن هديته إلى
« صفاء » الغالية وقبلت يده وخده ، ولما تقدمت لتقبيل يد
حماتي تمثلت المرحومة والدتي فبكيت ، ثم مددت
يدي أصافح عروسي ، وقد تبادلنا ابتسامتين من معانيهما
الظفر والحب والرجاء . وقلت لها بلسان الزوج أنني سأحضر

بعد أسبوعين عقب عودتي من « أسوان » لاستصحابها
إلى بيتها في عزبة الزيتون .

... وبلغت القاهرة بعد أن اجتزت صفين طويلين
من الأشجار الباسقة واقفة على جانبي الطريق تحيني
أغصانها ، أنا « العريس » برعشة وابتسامة

لم يكن خادمي يتوقع عودتي من السفر بمثل هذه
السرعة ... وما كنت أحسب أن الظروف مهما تباينت
أنواعها وتعددت أسبابها بقادرة على تحويل الإنسان عن
طبيعته وعما تعود

تذكر يا صاحبي أن قلت لك أني ميال إلى التريث
والتؤدة ، ولكني في خلال هذه المدة أوعى التحديد منذ
رأيت « صفاء » للخطرة الأولى واعتزمت الزواج ، قد
تبدل تريثي بسرعة وتودتي بعجلة ، وصرت أضيق
بالإرجاء والتهمل ، ولا أحفل إلا بالخاطرات والبدوات .
بهت الخادم الزنجي حارس الدارة حين سمع بوق
سيارتي فنهض يهرول يفتح الباب على مصراعيه ، ولست

أدرى ماذا أصاب خادمى الطاهى ، وقد رغبت إليه إعداد
فنجان من النعناع ، فلما أحضره وجدنى فى سريرى أغط
فى نوم عميق

لم أنم فى الفترة ما بين خطوبتى وزواجى نومة هادئة
مريحة خالصة حتى من الرؤى والأحلام إلا فى تلك
الليلة

وفى الصباح المبكر عند ما استيقظت قفزت من سريرى
قفزا ورحت أنظر فى المرآة... وجهاً واضح السنة... يتهلل من
السرور ، فطفرت إلى الحديقة أتفرج على الأعشاب وقد
نمت وفرشت بساطها السندسى ، وإلى أصص الزرع وقد
نبتت أبصالتها ، وإلى شجيرات الورد وقد نهضت سوقها
وتفرعت أغصانها وبدت براعيمها ففاضت بالفرح نفسى ،
فقلت وقد أجلت طرفى فى الحديقة المنسقة باتقان يمم عن
ذوق الجنائى : هذه قصيدة من روائع نظم الطبيعة أقدمها
هدية إلى « صفاء » زوجتى الحبيبة .

لم تكن رحلتى إلى « أسوان » تزجية أيام فى الفراغ

أو الاستمتاع بما يسميه الشيوخ والضعفاء والنساء راحة .
بل لإنجاز عمل يتعلق بمهنتي العلمية .

رحت مرات عديدة إلى « أسوان » وجلست طويلا
عند شرفة الفندق المطلة على النيل أتأمل اختلاف وضع
هذا النهر عما هو مألوف في مجراه حتى مصبه في البحر ،
وفي حجارة سوداء ناتئة كأنها جزر بركانية طافية فوق عبابه ،
وفي سماء زرقاء صافية صفاء لا نظير له فيما رأيت في الشرق
والغرب ، وفي ليل تتزاحم نجومه وتتنافس في سفورها
وفي تجليها لألأة لامعة ، وفي جبال تسكن صخورها طعام
من الجان ترمينا بنظرات غمّازة من لمعان ذريرات المعادن

إن أنس لا أنس من ذكريات « أسوان » يوم
كنت وطائفة من أساتذة وطلاب وطالبات جامعتين الأولى
مصرية والثانية أميركية فوق الجسر العظيم المعروف بالخزان
وقد أرعدت السماء وأبرقت وما لبثت أن نضحتنا برذاذ
كأنه قطرات الندى في أصباح الربيع ، وكيف بهتنا من
تحليل أشعة الشمس في كريات ماء السحاب وظهر قوس
قزح في ألوانه السبعة بادية الواضح من البنفسجي حتى

الأحمر ، وكيف شدهتنا وقد تكسر السحاب الأبيض
فصار أشبه بكوم من الصدف اللؤلؤى يعكس ضوءه
الشفاف الملون على الأمواه المتدفقة من عيون الخزان
فرايت «القبة المقلوبة» فى ضحى النهار ، وكيف أتلت الفتيات
أعناقهن يرمقن السماء الجميلة المتبرجة بالفتنة والسحر بنظرات
الغيرة والحسد

ومما أذكر ونحن نعتلى ظهر الخزان، هذه البدعة الفنية العظيمة
فى اخزان الماء مأخوذین بفتنة السماء ؛ وبالظاهرة الجوية
البديعة النادرة الحدوث ، وبجاذبية المياه تتدفق فوارتا من
عيون الخزان فترينا الجلال والجمال فى آن واحد ، فى
هذه اللحظة استخف الطرب الشبان والشابات فراحوا
يصفقون ويغنون ، وقد أنشد طلاب وطالبات الجامعة
الاميركية أنشودة مطلعها « يالآله القادر العظيم ، وما أحلاك
ياسماء » وغنى طلاب الجامعة الأخرى وهم يصفقون مقطوعة
من نظم بديع خيرى كان يغنيها المرحوم نجيب
الريحانى وفرقته !!!

ما أكثر ما انطبع فى ذهنى من مرأتى فى « أسوان »

لا تمحى من المخيلة ، منها غروب الشمس تبرقش السماء
 بغلالات شفاقة من الورد المنتور ، وأمشاج الياقوت القانى ،
 كأن فنانا عبقرىا يعث بصفحتها ويلونها بألوان بهجة
 لا تعرف لها أسماء لتعدد درجات سلمها اللونى ، وانى
 لأذكر حديقة فندق « كتاراكت » على التخصيص وورودها
 المفتحة ، وأزهارها المجنونة تزاحم ترفع رؤوسها شامخة ،
 أو تنحنى بدلال ، أو تتمايل وتتلوى بغنج ، أو تستتر
 تحت أعناق أخوتها حياء ، أو تتراخى فتوسد على العشب
 الأخضر ، والحياة فيها ناشطة مسرقة فى نشاطها
 لقد ثبتت الأزهار فى تلك الحديقة كأنها عيون تغمز
 غمزات الحب والاعزاء ، وشفاة مشرأبات للقبالات ، وثغور
 تفتقر بالابتسامات ذات الأسرار التى تعنى روح الحب ، والغاية
 من الحياة ، والوسيلة إليها ، وخميلة متراصة متشابكة أغصانها ،
 وأشجار تتيه دلالات وميساننا ، يختلن عجا وزهوا ، يتحدن رشاقة
 وفتنة وسحر زائراتها فى الصباح والضحى من نزيلات
 الفندق يرتمن عند أقدامها وحفاف سوقها يقارن بين زهوها

وكبرياتها تجتذب النحل يترامى على ثغورها يترشّف رحاقها ،
 وبين قبوعهم وحيدات متروكات نائيات عن المرح والسرور
 مع من تخفق قلوبهم لخفقات قلوبهن ، وتشتاق شفاهم
 شفاهن ، وتتجاوب خلجات وجدانهم مع وجدانهن .
 فى طبيعة جو « أسوان » خاصية عرفها طيب نطاسى
 ألمانى يدركها الشيوخ معنى وحسا ممن يقيم فيها بعض الوقت
 من فاقدى النشاط ؟ !!!

لست أعلم يا صاحبي إذا كان تفتح نفسى ، ويقظة
 روحى ، وتنبه وجدانى ، واعتلاج عواطفى للحب والحياة
 هى التى صقلتني فبلورتي فجعلتني أرى وأشعر وأحس فى
 « أسوان » مالا يراه ويشعر ويحس به سواى من الناس ،
 وكنت برغم يقظة نفسى لا تخطر زوجتى فى بالى لأنى
 ملكتها ولم تعد تتراءى صورتها فى مخيلتى بقدر ما كنت
 أرى شبح والدها منتصبا أمامى ، وأسمع صدى كلماته
 يتماوج فى سمعى

قلت يبدو لى أن حماك يشغل تفكيرك ويدفعك عن
 الاهتمام بعروسك فقال:

لا شيء يصدني عن التفكير في عروسي ، أنت تعلم أن الزواج
استسلام وعزم ، أما أنا فقد عزمت واستسلمت فلا أقل من
أن أستريح بعض الوقت ، راحة تشد عضدي في احتمال
المسئولية الصغرى القادمة والتي ستليها مسئولية
الأولاد الكبرى

قلت : أحسب أنك رحت إلى أسوان تريض رياضة
روحية تنجيك أو تخفف عنك عذاب جحيم الزواج
فابتسم وقال : الانفراد وسيلة للانطواء ودراسة ما عرض
للنفس من مشكلات ، والاستجمام غرض الراحة ، وعلى
أضواء الاستجمام والانفراد والراحة أخذت أقارن بين عمي
الشيخ الذي تنبض في عروقه دماء حارة في حب وطن لأهله جميع
خصائص الشعب الحر ، وبين صديقك ذاك ، المدعو « القمعدار »
بك ذلك الشيخ الديديس الذي لا يفتر لسانه عن شتم
مصر خاصة والشرق العربي عامة ولا يني يحط من أقدار شعبها
ويقول فيهم « أن انبعاث الأموات محال » !!

قلت من القمعدار ذاك ؟ قال هو صاحبك الخائب الفاشل
قلت : هل تقيم وزنا لذلك الموتور ؟ هل يغرك تشدقه في زمرة

يطعمهم فيسكنون على هرائه ؟ إنه وحقك لأجبن من أن يتفوّه بكلمة في بيئة الوطنيين الأحرار ، ثم كم عدد من في مصر من أمثال ذلك المدخول النسب من الذين يتمسحون بمجد محمد على وفتوحات ابراهيم ويلصقون ذواتهم بهما لصقا والحقيقة أنهم ليسوا منهما ولا هما منهم ألا بقدر تقارب الشذاذ والتفاف بعضهم حول بعض حين ينزلون في قوم ليسوا من قبيلهم ولا من جنسهم ، وتلفت حولي أقول « اللعنة على هذه الأسرة وعلى من التفّ بها من اللصوص »

واستطرد يقول : لم يخطر ببالى صاحبك الموتور بالذات إلا لأقول لك أن القمعدار هذا كان في بعض الأحياء ، بل في أكثرها يتكلم صدقا ولا يقول ألا حقا ، لاحبا في الصدق بل محاكاة لشيطان رجيم يبلغ أرذل العمر فيمثل دور الملاك ، وأنى برغم إحتقارى سفهه وآرائه السياسية وافتقانه بحب المستعمرين وتمجيده أعمالهم وتطوعه في خدمة المحتلين نكاية بالمصريين ، وامعانه في شتمنا وقزعنا ورمينا بما نحن منه براء ، برغم كل ذلك أحترم الحقيقة التي أسمعها منه أو سواه من الناس ، لا لأنها حقيقة مجردة ، بل لأنها تدلني

على مكن الداء في نفسى وفي قومي وتنهى إلى ما يجب على
عمله كي استأصل على بنفسي دون اللجوء إلى أحد ، وأخيراً
لصدورها من عدو لدود يلبس ثياب الصديق الودود

واستطرد يقول ، ألا قل لي بربك أليس آباؤنا هم الذين
دعكهم الإحتلال دعكاً وطحنهم طحناً فجعلهم مثالا لليونة والتميع
والاستكانة ؟ ألسنا نحن أبناء أولئك الآباء ؟ صحيح أننا استفقنا
على حادثات مشاتق دنشواى ، وصرخات مصطفى كامل ومحمد
فريد ، وقومة سعد زغلول ، ووصحيح أننا رحلنا إلى بلاد
الناس نفترف العلم من مواردها ننهله من ينابيع معاهدها
الصافية ولكن لما عدنا استقبلتنا إدارة حكومية عفنة
تسودها فوضى مجنونة فبعثرتنا ، عن جهل أو عن قصد هنا
وهناك ، ومزقتنا شر ممزق ، فجعلت من المهندس كاتباً ، ومن
المحاسب مزارعاً ، ومن الرسام شرطياً ، ومن الاقتصادى
مساحاً ، ثم جرفتنا السياسة الداخلية بتيارات الفوضى ، فتبنا
السياسة المتحزبون ، فملأوا جيوبنا الفارغة بالمال ، وأدمغتنا اللينة
بالأمانى المعسولة ، ثم سعينا نحن إلى الرجوع إلى قواعد
إختصاصنا بالمال ، فاشترينا وظائفنا بالرشوة وماء الوجه ،

وبأمان أخرى أتغف عن ذكرها ، وليس هذا بعض ما دفعناه من مال ، ولا كل ما أهدرناه من كرامة !! واني لأسألك هل قامت جماعة من المتعلمين ، هل فكرت طائفة من المثقفين ، هل جال في بال الموظفين وغير الموظفين ، هل سمع أحد منا هممة تدل على تأفف ، أو غمغمة تشير إلى تزمز ، أو أننا نؤازر هذا الوزير وذاك ، ننتمى الى هذا الحزب مرة والى الحزب الآخر مرة أخرى ، لا لتفضيل مبدأ عن آخر بل لنعم برضا الحزبين ؛ وبمال الحزبين العامرتين بأوراق النقد نملاً محافظنا ؟!!

هذه حقائق يجب الاعتراف بها . فالذى أحمد له لصاحبك القمعدار بك هو تنبيهه إيانا إلى هذه العلل القاتلة، ولكنى أسفت بل لمت نفسى أشد اللوم كيف لم أتنبه إلى حقائقه الابليسية تلك وكيف لم أتبين خبثه وهو يشيعها فينا على اعتبار أنها حقائق مجردة وقد صرنا كما أراد أن نصير : صرنا نستهن بالفضائل ولا نرعى الحرمات ولا نتمسك بعادات بيوتنا وتقاليد قومنا . وما عتَمنا وبالأسف أن أخذنا نقوم الفضائل ونزنها بميزان الجنيه والفدان فقط ، وكأن المال هو العنصر الوحيد والسمة

المميزة لخلقة هذا الجيل .

والفرق بين عمى وبين صاحبك القمذار بك أن الأول
مصرى يدين بدين الشرق ، والثاني تركى طورانى ، وأن جنسيته
الرسمية واستيطانه مصر لم يبعده عن طورانيته وعن عنصره
المخرب المدمر ، وعمما هو مطبوع عليه من عنجهية كاذبة
وكبرياء مصطنعة . ناهيك بشخصيته وما لازمها من الفشل
والخيبة فى كل ما عمل طوال حياته ، ولا يغرنك لباسه المسوح ،
وتكويره العمامة خضراء فوق رأسه ، وحمله المسبحة ، فالله وحده
يعلم وهو يقلب حباتها بماذا تتم شفتاه من الحقد على مصر
ومن الكراهية للعرب ، وأن نطقه بالحكمة وتعمله الظهور
« بمركب التفوق » لا بمركب النقص فى حديثه عن نفسه إنما هو
تغشية وتمويه لما ينخر فى صدره ، ويغلى فى جوفه ، من أصل
قومه الذين أنكروه ، ومن المصريين الذين نبذوه وردلوه ،
وهكذا قد بات مكروها من كل الناس ، وملعوناً من كل
شرقى وعربى

قلت لعلك تناسيت ، ذكر ثلاثة عوامل أخرى لا تقل
عن تخرصات القمذار بك والنفاية الباقية من أبناء

جنسه تهزنا هذا ، وتدفعنا دفعاً إلى حياة جديدة .

قلت ماهي ؟

قال : طائفة العلماء المؤرخين ، وقادة الفكر من الأدباء والمدرسين ، ومصاييح الجيل من حملة أقلام .

قلت ما خطب هؤلاء أيضاً ؟

قال : إذا كان للقمعدار بك ، ذلك الصديق اللدود والعدو الودود من الفضل في تعيرنا بما فينا من علل خلقية واجتماعية ، فإن فضل هؤلاء علينا أوفر وأعم .

قلت : كيف ذلك ؟

قال : لقد نهض المؤرخون المعاصرون وعلماء التاريخ الحديث الأجلاء ، فاتخذوا لذواتهم ندوة تليق بكرامة العلماء ، كدسوا فيها المجلدات تكديساً ، ونسّقوا الكتب التي كتبت في محمد علي وسلالته تنسيقاً ، وراحوا يعصرون يوافيتهم عصراً ، ويجهدون قرائحهم إجهاداً ، يدسون بين سطور التاريخ سطوراً ، ويمحون من تلك الأسفار سطوراً ،

ويدخلون عليها وقائع متحلة ، فيحاضرون الصفوة من المتعلمين بخلاصات أو مقتبسات من تلك التواريخ المحرقة ، ويخرجون للناس تواليهم المكذوبة ، يفرضون تدريسها في دور العلم فرضا، ومن عجب أن الخديوى إسماعيل المفترى على مصر وأهلها ، والذي حملها من الديون أثقالا ناءت بها أعواما طوالا ، والذي نشر الفجور والدعارة نشرا ، أضحى بفضل هؤلاء العلماء مفترى عليه !!... وأن الملك الصالح كما تنعته الصحف كلها ، المعروف النسب من ناحيتي الأب والأم ، قد تحول بقدرة قادر ، من طورانى مشكوك فى نسب جده إلى عربى قرشى ينحدر من العترة النبوية ، عترة محمد بن عبد الله ، حدث كل ذلك بفضل العلماء الأجلاء ، علماء الدين وعلماء التاريخ الحديث !!!

والأنكى من هؤلاء العلماء وأكثرهم اقتراء على الحق والواقع ، عالم بالآثار ، متخصص فى المصروولوجيا ، يدرس هذا العلم فى إحدى الجامعات ، لاهو فى غير السياسة ولا فى نفي الأحراب ، هذا العالم الجهد الذى أقام فى ألمانيا عشر سنوات على نفقة الحكومة ، أبى عليه طبعه إلا أن يحشر نفسه

في صفوف المؤرخين ، وإلا أن يتخذ من التاريخ القديم وسيلة للزلفى والخضوع يتقرب بهما من الاعتبار الكريمة ليحظى بالرضا الملكى السامى .

قلت مادخل التاريخ القديم فى الازدلاف إلى الحاكم والتزلف إليه ؟

قال : فى التاريخ المصرى القديم حكاية ملكة كانت لها علاقة بخادمها مشوبة بالشبهات ، وأن الأدلة التاريخية المنقوشة على الحجارة فى معبد الكرنك وغيره تدل على صدق الرواية وصحتها الصارخة ، وأن أهل تلك الملكة الفاجرة عرفوها فى زمانها ، فمحوا آثارها التى نقشت بمعرفتها هى على الحجارة الباقية ، ليظهروا اسم العائلة التى دنسها ، وينقوا صفحات التاريخ من عهدها الفاجر . ولكن دوافع التزلف لولى الأمر ، دفعت ذلك العالم الوضيع النفس إلى أن يسجل فى كتابه « فى مواكب الأقطار » قولاً لا مرية فى تجنى قائله على المسطور المأثور منذ آلاف السنين ، ويقول فى تبرأة تلك الملكة الفاجرة : وددت لو أنى كنت أملك من الأدلة والشواهد ما يعيننى على تبرئة ساحة الملكة لما ترددت عن ذلك ، لأنى أكره لحياة

للملوك والحاكمين أن يصورها التاريخ على هذا النحو المريب.
ويقول في دفاعه عن أحد أولئك الملوك وهو ضريع تلك
الملكة وشيئها في إنحطاطها الخالق « يحزننى أن يكون فرعون
وهو ملك الناس ، وإمامهم ، وخليفة الله على الأرض ...
أن يكون متهما في رجولته !!! »

كم فى كتاب ذلك العالم الأثرى المهين الكرامة من
أمثال هذا الدفاع الواضح الغرض ، هو الزلفى للحاكم الفاجر
والتضليل لأفكار الشعب ، ولعل أحقر إدعاءاته وأجراها
على العلم ، إهابته بالمؤرخين أن يغلبوا الخير على الشر فى
سرد وقائع الأسر المالكة لأن زلل الملوك يمس كرامة
الأمة والوطن !!! »

قلت ما ذنب الأمة المظلومة والمغلوبة على أمرها ، وما
هى جريمة الوطن المنكوب بملوك فجّار وملكات داعرات ؟
قال ألم تر يا صاحبي أن هذا العالم الأثرى هو أحقر من
مؤرخى العصر ؟ وأن هؤلاء أكثر حطّة ومهانة من
العلماء الذين تجرأوا فتوقحوا فجعلوا من الطوراني عرييا
ومن النغل أصيلا ؟ ألا يستحق هؤلاء الأوغاد شكرنا

لأنهم نهوا أذهاننا بكذبهم ، وأيقظوا نفوسنا بنفاقهم ، وهزوا
وعينا بريائهم وأفكهم ؟

ثم ماذا تريد أن أقول في الأدباء ؟ هذا كبيرهم
الكبير ، العريض الجاه ، المستفيض الشهرة ، الذائع
الذكر في الشرق والغرب ، العالى الكعب فى الفن ،
النابه الذهن ، السفير غير الرسمى لكل دولة ، الطموح
إلى بلوغ ما لم يستطع بلوغه سواه من المبصرين ، أنظر
إليه وهو يترامى على يد الطاغية يتهافت على تقييدها ، ثم
يعتلى المنبر فيندلق فى مدحه اندلاق الماسورة المنفجرة ،
ويسرف فى تعديد خلائقه وشمائله ويغالى فى مناقبه . وكيف كان
يستمتع الطاغية إلى ذلك الخطيب الأنيق اللهجة يتدفق فى المدح
ويتميع فى الاستخذاء والخضوع ، ويتهافت فى الاستجداء ،
وكيف صافئاً يقارن كلامه هذا بما كان يصوبه إلى
صدره من سهام مسمومة وكيف ابتسم ابتسامته الصفراء واثنى
عنه انثناء المستهين كأنه لا سمع ولا رأى ؟ !

أتذكر كيف حرد الأديب الكبير حرد الطفل المدلل حرم
من قطعة الحلوى ، وكيف ثار ثورة الوليد البكاء يضرب

الأرض بقدمه في طلب قطعة الحلوى

ما هو نوع الحلوى ذاك الذى يستذل كبرياء الأديب
الفنان ؟ أى تمجيد للأديب أجد من إحترام ومحبة قراءه
له ؟ ما قيمة أديب يستجدى ؟ ثم ماذا ولماذا كان ذلك
الأديب الهام يستجدى؟

لقد مدّ الشحاذ يده يطلب بذلة وانكسار من سيده
الطاغية كسرة من رتبة يتعالى بها على الزملاء !! كأن الرتبة
هى التى تعلّى من قدر الأديب لا العكس

أتدرى يا صاحبي كم دفع صاحبنا ثمنًا لتلك الرتبة ؟
من الأمور ما تضطرنّا الكياسة على السكوت عنها ،
ومنها ما تجبرنا أخلاقنا على الاغضاء والصمت ، إذ ليس كل
ما يعلم يقال

قلت : عرفت الأديب الذى تعنيه ولكن ألا يحسن بك أن
تسوِّغ مواقفك منك بانحشاره فى الحكم وتحزبه الشنيع ، وتبرر
تكالبه على الرتبة ليتساوى مع أقرنه ورفقاءه

قال : كان بودى أن أبرأ ساحة هذا الأديب الكبير من
جرمه التبذل وأن أساوى بينه وبين أنداده من كبار الأدباء

الذين أعادوا الأدب إلى العصر الذى كان أمثالهم فيه يقفون على أبواب الخلفاء يستجدون منحة أو خلعة أو عطاء ولكن إشراك العلماء والأدباء معه وتلوّثه إياهم بما تلوث هو فيه هو الذى يحسم مسئوليته ويضاعفها اسمع ما يقول :
يفخر الجامعيون بأنهم يشاركون ملكهم فى عيده ،
فأعياد فاروق أعياد جامعته ، وسروره سرور لها ، ومن حق الجامعيين أن يفخروا ويفرحوا لأن كل واحد منهم فاروقى ،
فهذا اليوم يوم عيد العلم للعلم ، وعيد علماء المصريين جميعا وأن العلماء والمتعلمين . والباحثين وطلاب البحث ، يرجون أن يرفع إلى جلالة الملك المعظم ما تكنه قلوبهم من شكر أصدق الشكر ، ومن حب أخلص الحب ، ومن وفاء أحسن الوفاء لشخصه الكريم . فان ما تفضل به جلالاته على العلم والعلماء من منن لا سبيل إلى تقديرها وليس إلى إحصائها من سبيل . ثم قال : ما جئت لأقف على مدى حب الشعب لك يامولاى ، لقد عرف العالم كله أن شعبك قد أحلك عرش قلبه وهو عرش لا يزول كغيره من العروش ،

قلت إذا كان هذا حال الأدباء والعلماء والمؤرخين فكيف
 بربك يكون حال حملة الأقلام ، قادة الفكر ؟ وكيف يكون
 حال الشعراء الذين لا تواتيهم شياطينهم بالوحي إلا في زفاف
 أو مأتم أو حول مائدة طعام أو خوان شراب ؟
 وكذلك كيف حال المعلمين والمدرسين مفاتيح أذهان الجيل
 رجال المستقبل ؟

قال ليست العبرة يا صاحبي في نبش القبور بل
 الجدارة في ردمها حتى لا يفوح نثرها
 قلت زدني علما ووضوحا
 قال سأزيدك رمزا وتورية .

قلت أتخشى صاحبة الجلالة ذات القوة الرابعة في الدولة ؟
 قال بلى وأخاف الطبال والزمار والرقاص والمهرج
 وكلب الحاكم الوشاء النمام أيضا واستطرد يقول : برغم
 ما أصابنا يا صاحبي من نفاق هؤلاء المنافقين ، وما أشاعوا
 بيننا من روح الاستخذاء والخزع وعدم الثقة بالنفس ،
 برغم فعالهم تلك وقد قاموا بها مأجورين أو عن جهل
 بروح الأمة ، فأنا أحمد لهم فعالهم وأكبر سعيهم لأن إسرافهم

فى التضليل وإمعانهم فى قلب الحقائق ، جعل دعايتهم المفرضة
تدحرف عن طريقها وتنقلب إلى ضدها .

قلت هل تظن أن يقوم شاب مهوس بفرغ رصاص
مسدسه فيردى الطاغية ويريح البلاد من فجوره ؟
قال صه يا أحمق ولا تتفوه بما يجول فى خواطر
الشباب المتحمس . لأنه لا فائدة فى القتل ، ولأن القتل يجرّ
على البلاد ويلات ونكبات فضلا عن أنه يجعلنا مضغة
فى أفواه العالم الذى سيحكم علينا بعدم النضج ، ومن الصواب
أن نخزل هذا الحديث الشائك .

استراح قليلا ثم ركز ميزان دماغه بسيجارة كما يقول
هواة التدخين وقال : تصرمت المدة المقررة لإقامتى فى
« أصوان » وتمنيت لو أقيم أياما أشبع الروح من جمال
الطبيعة المنتثر فى كل صوب فى السماء وفى الأرض .
وعدت إلى القاهرة أسمع من أحاديث المجالس شبه هزيمات
أقرب ما تكون بدوى النحل ، وكان كل محدث يبالغ
فى الغمغة والهمس ، وفى إلباس قصته أو الخبر الذى يرويه
عمامة الوقار وطيلسان العلماء وبُعد اتصاله بالمقامات العليا

وبالرجالات أصحاب الرأي والحل ، في حين أن الشرذمة
القليلة أو الحفنة الصامته كانت تجتمع وتدرس وتقرر وتدبر
التدابير وترسم الخطط بعيدة عن الأبصار والأسماع لا
يحس بوجودها أحد من أصحاب العيون والآذان
صمت هنيئة ثم تنهد وقال : ضدان يا صاحبي لا يطمئنان ،
كذاب قوى الذاكرة لامع الذهن يلبس الكذب ثياب
الصدق ، لا يخشى عاقبة كذبه قدر ما يخاف أن تخونه
ذاكرته مرة واحدة فيفتضح أمره . وما جور على عمل يكرهه
ولكن أجره يغري الغنى فضلا عن الفقير في التغاضي عن أداء
ما هو واجب ، وعلى قيامه به خير قيام غير آبه بوطنه ولا
بعذاب ضميره

قلت على التو أي الرجلين أنت ؟
حدجني بنظرة حادة وقال : أنى لأدفن في قرارة
نفسى سرّ أتمنى أن لا يصحبني إلى القبر .
قلت مازحاهل كنت عينا فأغضتها ؟
قال وهو يتحدى مزاحي لا ... لا ... بل عزمت على الزواج
وتزوجت وتوكلت على طمأنينة ضميري

وفي صباح يوم ركبت سيارتي ورحت إلى «قحافة» ضيعة
 الزوجة الحبيبة وبعد السلام على عروسي وأبويها ، هرولت
 إلى المطبخ كعادتي أقتش عن رغيف رقيق شفاف مقدد ،
 وقطعة من الجبن وطبق من العسل ، ولم أمهل حماي أهىء لي
 ما أستطيعه من حواضر البيت . أما عروسي فقد كانت
 أسبق من أمها في مد المائدة ونثر الأطباق مملوءة بما
 ادخرته لمثل هذه الزيارة وفي تزيينها بالأزهار .

قلت : المعروف عند الفلاحين أن الفتاة تحتجب
 عن عريسها إلى أن يبنى بها .

قال : والله لا أدري إذا كانت حماي وعروسي فلاحتين
 أو متحضرتين ، لأن الشكل يدل على الريف والقول والعمل
 من صميم المدينة .

لم يسألني عمي عن أخبار مصر ، وقد أجبته زوجتي
 على سؤالها عما انطبع في ذهني عن « أصوان » ورحت
 أشيد بالجمال الذي لقيته فيها ، وأطنب في المتعة الروحية التي
 استمتعت بها هناك .

لم يرح جوابي زوجتي ، وقد أدركت من انضمام

شفتيها أنها أمسكت عن الكلام ورحت أسأها ماذا جهزت
من ثياب العرس ؟

قالت : الفستان الأبيض وواحدًا للخروج وآخر للسفر .
قلت صورتك ... هل لديك صورة شمسية ؟
قال عمى يسألني هل أتما مزمان السفر إلى الخارج ؟
قلت هو ذاك وفي ذلك اليوم قررنا موعد العرس
واتفقنا على أن نخص أنفسنا بالفرح وألا نشارك فيه
أحدًا من الناس .

.... وفي صباح اليوم الموعد وصلتني برقية من عمى يقول
فيها أن أمنية إبنته أن أحضر في ثياب « سموكنج » .
سموكنج في « قحافة » ؟ قلها بصوت مرتفع وأنا أقرأ
البرقية ، وعدت أقول وأنا أبتسم إبتسامة عريضة ، يظهر أن
شيطاني الصامتة تميل إلى المطايات والمعايشات كما أميل
أنا إلى المفاجآت .

لم أستصوب إرتداء سموكنج في عصر النهار ، ولكني
صدعت إلى طلب عمى في تحقيق أمنية
عروسي ، فارتديت حلة سوداء وأخذت معي سترة سموكنج

وطاقة صغيرة من الزنبق الأبيض ، وقبل مبارحة دارتي
ألقيت نظرة على الغرف خصوصاً غرفة المائدة وقلت
للخادم أن لا يحرق أعواد الند ويطلق البخور إلا بعد أن
ينتهي من تصفيف الأزهار في الأواني ويكون ذلك بعيد
الساعة العاشرة محافظة مني على طيب رائحة البيت وعلى
روتق ونضارة الأزهار .

لم أقل لخدم البيت أني سأزوج ، ولم تند مني كلمة
تدل على ذلك ، ولم أدري كيف عرف العم « عثمان »
خادمي الخاص بالأمر إلا حين رأيته واقفاً والبواب
والطاهي والبستاني ووقف سائق السيارة معهم بوجوه باسمة
وشفاه صامته كأنها تنتظر إشارة مني لتفرج وتقول لي
بصوت واحد « مبارك » دلالة على اشتراكهم معي في
فرحي بالزواج .

لا شيء يفرح الأجير أو العامل الكادح غير المال ، لا الطعام
ولا الكساء ولا الشراب تساوى القرش الذي تنقده إياه
ينفقه في إسعاد ولده أو من يحب من الناس ، في ذلك
الموقف الوديع والبسمات المتوسلة ، تصورت معاني اللذة في

إنفاق المال ، وأيقنت أن في استطاعتي إشراك هؤلاء
الرفاق من الخدم معى في أفراح نفسى .

أعطيتهم من المال ما أفرحهم ، وسمعت منهم أنشودة
جذلم وابتهاجهم دعاءلى وتوسلات إلى الله أن
وأن وأن . وركبت السيارة ، ولشد ما
أدهشنى وقد رأيها مزينة من الداخل بالأغصان والأزهار
يفوح منها العرف الطيب .

إن الذى زان سيارتى بهذه الأزهار المنمنمة إنما هم
الخدم الخالصاء الأوفياء الأقرب إلى نفسى ممن أسمىهم أصدقاء ،
فصداقة هؤلاء ومن هم على شاكلتهم من العمال المأجورين لا
تقلب بين خير وشر ، بل هى إن نهضت للخير إرتفعت إلى
الذروة واستقرت فيها مع الأمناء الأوفياء ، وإن هبطت
هوت إلى دركات السجن مع المجرمين ، فالتفت إلى أصحابى
الأمناء أشكرهم بابتسامة هى كل ما استطعت أن أقوله
وأبلغ ما قدرت على التعبير عن امتنانى منهم لأنى بكيت
وراحت السيارة تدرج متمهلة فى سيرها إلى « قحافة »
أمن الممكن أن لا يكون أهل « قحافة » كلهم من

الكبير إلى الصغير لا يعرف خبر زواج إبنة « حامد بك » ؟ ... هل يمكن لأهل هذه الضيعة القليلة العدد أن لا يدفعهم الفضول وحب الاستطلاع إلى رؤية العريس أو الدنو منه والتفرج عليه؟ هل يمكن أن يكون سلطان « حامد بك » ممدود اللواء على أهل القرية كبيرهم وصغيرهم إلى حد أنى لم أر فى زيارتى كلها واحداً منهم فى طريقى أو فى حضرة عمى؟ ليس للفلاح ثمة حديث فى مجالسه إلا حديث القرية وأهلها، ولا يعقل أن يشذ أهل « قحافة » عن طبيعة الفلاح المصرى؟

كأنى بأهل ضيعة عروسى قد كتبوا ذواتهم وحبسوا أنفسهم طوال مدة خطوبتى بتأثير من عمى، وكأن معين صبرهم قد نضب فاندفعوا الليلة يظهرون إبتهاجهم وفرحهم بتجمع الصبية قرب دار عمى ومن ورائهم فتيات ونسوة ما أن لمحن سيارتى مقبلة حتى أطلقن زغاريد من حناجر منها العامرة بالقوة، ومنها الغصانة .

لست أكتم عنك يا صاحبى شدة فرحى بهذه المظاهرة وسماع الزغاريد فى تلك الساعة، لقد كانت مفاجأة سارة

لى ، سررت بها وطربت ، كأنى أسمع قطعة من الشعر
الرفيع تنشده « أم كلثوم » بصوتها النقي الحلو فى ساعة
من ساعات صفاء الروح وتفتح الوجدان .

بماذا أكاىء أولئك الجيران ، جيران عروسى على
تجمعهم عند باب الدار يطلقون موسيقى حناجرهم بزغاريد
لا يعرفون وسيلة سواها للتعبير عن الفرح ؟

ودخلت الدار ألبس السموكنج ، أحمل باقة الزنبق
الأبيض ، فرأيت عروسى فى حلة العرس بيضاء مجلوة
كأنها فى جلال الملائكة على عرش الجمال ، وكدت لشدة
ابتهاجى بعروسى وطلعتها المشرقة ، أذهل عن حماى وهى
تحاول أن تزغرد فتخنقها عبرات الفرح ، ومن عمى
أيضا المهيب الطلعة وقد كانت كل جارحة فيه تدل
على الغبطة والانشراح .

تقدمت من عروسى أقدم إليها باقة الزنبق ، والتفت إلى
حماى أرجوها أن تحلى أذنى إبنتها بقرطين من الماس النفيس
جعلتهما هدية العرس وقلت لعمى أسأله بعد أن قبّلت يده
أى هدية يحسن أن أقدمها إلى جوقة « قحافة » الموسيقية ؟

فأجاب : لقد أعددت لهم وليمة الفرح

قلت : هذه وليمتك أنت ولكن ماهى الهدية التى تقدمها
« صفاء » إلى أولئك الفتيات والنسوة المزغردات والصبية

الحفاة العراة ؟ وقلت لنفسى

كم كنت أنفق من المال لو أقمت حفلة غناء أو شراب للأهل
والأصدقاء ؟ وهل كنت أسلم من ألسنة أولئك الأهل
والأصدقاء ؟ أو لو أننى تبرعت بنفقات الفرح لجمعيات البر
والإحسان هل كان يصيب هؤلاء الحفاة العراة إلا
النزر القليل منه ؟ أليس الأقربون أولى بالمعروف ؟

ثم قلت لعلى ، لى رجاء أرغب أن تحققه الليلة وهو
أن توزع هذا المبلغ من المال على ربة كل بيت من
بيوت الضيعة .

ثلاثون أسرة هى مجموعة سكان الضيعة نالت نصيبها
من الهدية ، هدية العروس « صفاء »

ثلاثون أسرة برجالها ونساءها وأولادها اشتركت
معنا بفرح يماثل فرحنا .

وددت أن أقوم بنفسى وتقوم عروسى معى على خدمة
 فلاحى الضيعة وهم يتزاحمون على الطعام الذى يغذى
 أبدانهم ويشبع معدهم التى اعتادت القوت الكفاف
 لقد فرحت كثيراً حين رأيت عمى الشيخ يدور
 حول موائد الطعام الممدودة فى صحن الدار يهش لكل
 مدعو ، يؤهل بالكبير ويرحب بالصغير ، وسمعته يقول
 للطاهى أن يبعث بأطباق الطعام والحلوى إلى ربة كل
 بيت فى الضيعة لم تقو على الحضور

أنها لفرحة روحية حقاً أن يشرك الغنى الفقير فى
 أفراحه ، أنها لغبطة مقدسة أن يشعر الإنسان أنه أدخل
 الفرح على قلوب مغلقة على شدائد ومتاعب ، وعلى
 أنغام هذه الغبطة اللدنية قضينا ساعات العرس وممعنا
 ثروة الشباع وأدعيتهم البريئة

همست فى أذن عروسى بأنى جوعان وأن العشاء
 ينتظرنا فى بيتنا .

وقفت لوداع أبويها تسكب على كفيهما دموع

الشكر والامتان ، وكذلك وقفت أردد بصدق قصيدة
الامتان والشكر لهذين الشيخين الكريمين وقد أودعا قلبي
فلذة كبديهما وسر لذهما الباقية في هذه الحياة

.... يا الله ما أبهى المرأة في ثياب العرس ، إنها للملكة
على عرش ، أنها الأمل في السعادة ، أنها الإيمان بالبقاء
والخلود ، أن صورتها في ثياب العرس يتوج رأسها أكليل
من زهر الليمون ، تجر ذيول العظمة والكبرياء ، لهى صورة
ماثلة للجلال والجمال يدخرها الخيال إلى أبعد زمن من
العمر وكانت إشراقة الفرح ترسم في عيون سكان
القرية تلتهم العروس إلهاما وهى تهبط الدرج بتودة
وتأن متكأة على ذراعى ، وحناجر النسوة تطلق الزغاريد
مجلجلة تباعاً وأيديهن ترمينا بالملح

ودرجت بنا السيارة تمشى الهوينا في طريق القاهرة

* * *

كنت وأنا في السيارة أنظر إلى ملاحه وجه
عروسى ، وبهاء رونقها ولا أتكلم ، فى حين كانت هى مطرقة

كفى بكفها ، فلما اجتزنا جسر «طنطا» وخلفنا وراءنا
أنوار المدينة وصرنا في قلب الحقول المنبسطة على
جانبى الطريق ، رأيته تنحى على يدى وتطبع عليها
قبلة ريانة والتفتت تقول بصوت رخيم منخفض لا
يصل إلى أذن السائق ، لقد أكرمتنى كثيراً
يا سيدى العزيز وأشبع ما تصبو إليه نفس فتاة مثلى ،
فأشكرك أطيب الشكر ، إلا أنه بقي لى أمنية أخيرة أتوسل
إليك أن تحققها .

قلت متلهفا أى أمنية هى ؟

قالت أمنيى ، وأرجوك أن لا تضحك منى ، هى أن
تحملى على ذراعىك فأجتاز عتبة دارك وأنا فى ثوب
الزفاف الطاهر هذا ، وبذلك تتحقق كل رغباتى .

قلت : ما الحكمة فى ذلك ؟

قالت : ليس هناك حكمة ، بل خرافة مستحبة ، تعنى
أنى لن أجتاز عتبة دارك مرة ثانية إلا محمولة على
الأكف فى الكفن الأبيض الطاهر إلى مشاى الأخير .
قلت معترضا : أتدخلين البيت يوم الزفاف محمولة

ولا تخرجين منه إلا يوم الدفن ؟

قالت سأخرج بصحبتك ولن أخرج منه إلا برفقتك
قلت : متى ؟

قالت : بين الموعدين طوال العمر

قلت : أحمد الله على أنك من الوزن الخفيف ولكن
أجرة الحمال كم تدفعين أجرة الحملة ؟

فابتسمت وقالت دفع الأجر بعد إتمام العمل .

..... وقف خدم الدارة في ثيابهم النظيفة

ووجوههم الباسمة يستقبلون العروسين ... وترجلنا من

السيارة فاذا بعروسي تلتفت إلى الخدم تحييهم تحية السلام

ثم دعت أكبرهم سنا ونفحته بمقدار من المال وقالت إنه

لزوجاتهم وأولادهم . فاذا بهم يتقدمون جميعاً يلثمون

طرف ثوبها

شكرت الخدم أصحابي ودعوتهن إلى الإنصراف على

أن يعودوا إلى عملهم في صباح اليوم التالي إلا العم

« عثمان » حارس الباب

..... وحملها يدي وأيت إلا إصعادها إلى

غرفة النوم في الطابق العالى محمولة على ذراعى ، ولما أنزلتها
كنت ألهث بينما كانت هى مستغرقة فى الضحك .

قلت لها وكأنى أخبىء تعبى من حملى غير المتعب ،
هذه غرفة نومك وإلى جانبها غرفة زيتك وصوان
ثيابك أما أنا فذهاب إلى غرفتى أتخفف من ثياب استنفدت
أغراضها ، ورحت فضوت ثيابا أسميناه « رسمية » ولبست
منامة لم ألبس نظيرها من قبل ، ووقفت أمام المرأة
أسرح ما تشعث من شعرى فاذا بخيالى ينسرح فى أجواء
الأمل والحب والسعادة ، لقد أطلقت له أعنته يصور لى
الواقع بصور زاهية ، ويحسم لى تماثيل المستقبل ، ولم أنتبه
إلى بصرى يمؤه على بصيرتى إلا حين رأيت شعرات
بيضاء تتماوج فى لمتى فأجفلتنى ، ولكن سرعان ما ارتسمت
على جانب فمى إبتسامة صفراء فقلت ، متى كان الرجال
أقل مغالطة من النساء فى السن ؟

ولم ينقذنى من تداعى أفكارى ، واختلاط تصوراتى
وانفعالات نفسى رهبة من الزمن ، سوى انطفاء النور
فى غرفة عروسى ! ؟

استيقظت من إغماءة الذهن ، وهرولت مسرعا نحو
 الغرفة فأشعلت النور وإذا بي أجد عروسى جالسة في
 ثياب العرس في مقعد متكأة كملكة على عرش لا
 ينقصها سوى وصيفات يحففن بها كالهالة وقد صوبت
 إلى نظرة عتاب رقيقة فأدركت مبلغ تقصيري في تطبيق
 قواعد البروتوكول، ومقدار الوقت التي استغرقتة انسراحي
 فتقدمت أعتذر منها وأساعدتها على نزع خمارها الشفاف
 وفك أزرار الثوب من عراها، وقد قبلت جبينها وانصرفت
 تاركا إياها تنضو وترتدى ما تحب من الثياب .

وجاءت تخطر في مشيتها ترفل في ثوب مسربل على
 قامتها، تزين صدرها بعقد الخطوبة، ورأسها بأكليل الزهر
 وقالت أرني عش سعادتنا .

قلت أليس الأفضل أن نبدأ بزيارة غرفة المائدة لأنى أكاد
 أموت هفوتا ، هيا « يا صفائى » إلى غرفة الطعام لأنى جائع
 عطشان ، مشتاق وولهان ، وعقدت ذراعى بذراعها وهبطنا
 الدرج إلى غرفة المائدة .

فاحت روائح الند والبخور مختلطة بعبق الزهر الذى
يزين جوانب غرفة المائدة ، جلست وأجلست عروسى إلى
جانبي وأشارت بأن تمد يدها .

قالت : وهى تبسم : من أين نبدا ؟
قلت من الطيبات .

قالت : لم لا نبدا من الطيبين ؟
أعجبتنى تلك التورية اللطيفة فقمتم فقبلتها ودعوت لها بالهناء
والسعادة ، وشرعنا نلتهم ما فى الأطباق التهاما لأنا كنا جائعين
التفت إلى جانب المائدة فرأيت إناء مملوءاً بالثلج
توسد فيه زجاجة من الشمبانيا فأدنيته منى ، فقبضت على
عنق الزجاجة وفضضت خاتمها ، فانتفض وهو يصرخ ، فتنفست
فأرعدت فأزبدت ، فملأت كأسين من رحيقها السائل الذهبى ،
فقدمت الواحدة لعروسى وتناولت الثانية أشرب نخب
سعادتنا .

قالت : تمهل قليلا ما هذا ؟

قلت : شمبانيا ، ألا تعرفين الشمبانيا ؟

قالت : لم يسمع هذا الاسم في « قحافة » ولكن عرفت
في الكتب

قلت : أتقرأين الكتب ؟

فهزت رأسها بالإيجاب

سكت هنيهة قلت فلنشرب إذاً نخب العروسين
قالت : سأفعل كل ما يطيب لزوجي أن أفعله وأدنت
الكأس من شفيتها وغبت غبة كبيرة ثم ردتها وهي تتلظظ
وتتساءل ما هذا الطعم المزّ ، بل الحامض ؟

قلت : هذا عصير العنب مخمّراً ومعتّقاً منذ زمن بعيد

قالت : أليس العنب الطازج ألذ وأطعم ؟

وعدنا نأكل من هذا الطبق ومن ذاك حتى امتلأت معدتنا
ولكن مزازة الشمبانيا اللذيذة فكرتنا بكمكة الفرح فقامت
عروسي فقطعتها وأخذت أيدينا تمتد إلى أطباق الحلوى تنوش
منها بغير تمهل ونرتشف الكأس وتتمززها على مهل

شعرت بدبيب في مفاصلي ، واضطرام في وجهي ،
واشتعال في دمي ، توهمت أن في ارتشاف الكؤوس

ما يخمّد حدة هذا الوهج فشربت شرب الظامىء
تطلعت إلى خدّى عروسى فإذا بهما مضرجان بحمرة
قانية ، وإلى عينيها تبعثان أشعة من نور أخاذ ، وإلى
عنقها يميل فيستند على كتفها ، وسمعها تسابقنى فى الكلام
فتقول ما يضحكنى ، وتقهره وتضحك مما أقول ، وأحسست
رغبة فى الكلام فكان يعصانى لسانى ، وشعرت بالأفكار
تهافت وتزاحم فلا أستطيع لمّها وضمها ولا تبيانها فى وضوح
قالت إنها مثقلة الجفنين فقلت إني نعسان ، قالت هيا
إلى النوم ، قلت ما أشد رغبتي فيه ، ومشينا متحاملين
مشاقلين ، نترنح متهاملين ، ألف خصرها بذراعى ، وتتكىء
بذراعيها ورأسها على كتفى ، وصعدنا الدرج نجرّ سوقنا جرا
ونحن نثرثر وارتمينا فى فراش واحد

يا لله يا صاحبي من ذاك الفراش ، أبجمر الغضا محشو
أم بشوك القتاد ؟ أم تراه مركبا فيه لولب يديره مرة إلى
أعلى ومرة إلى أسفل ونسيت أنى عريس .
لا أدري متى تعطل لولب السرير ، ولا متى سكنت

ثرثرتى ، ولا كيف السبيل إلى جرعة ماء أبل بها لسانى
الناشف ، وحلقى الجاف ، وجوفى الملهب ، وإلى ذلك النقر
المتواصل فى صدغى

وتحاملت على نفسى أنشد الثلاجة فشربت ولم أرتو
ولم أنس قرص الاسبرين المسكن للصداع
وعدت إلى فراشى ... ماذا ؟ ... يا إلهى ... أعروسى إلى
جانبى فى فراشى ؟ اللعنة على خمير العنب المعتق ، وعلى
أوهام النشوة

ياالعروسى المسكينة ، وددت أن أفتح لها الليلة قلبى
على مصراعيه فإذا بى أنطرح بالقرب منها ، فلا هى لى
جنة عدن أنعم بخمائلها وغياضها وأزهارها وثمارها أعب من
كوثرها ، ولا أنا فى جهنم أصطلى بلظاها وأكتوى بنارها ، بل
كنت مرتما عند الاعراف يفصلنى عنها سور أى سور !!
دنوت منها ... لقد غلبت حموضة أنفاسها المخمورة
على طيبها وعطرها ، فراجعت عنها ، فتركها فى سريها
تتخلص من خمارها بالنوم ، وعدت أستلقى فى فراشى أجدد
بالنوم القدرة على الحياة

لقد استحييت من زوجي حين أصبحت... ورأيتها خزيانة
تحييني تحية الصباح وقد قرب الظهر ، وراحت تعتذر من
نومة الضحى ، وقد نسيت أو تناسيت ماوقع ليلة أمس
أقول لك يا صاحبي أني لزممت البيت خمسة أيام ، إلا
ساعات نزهة المساء كنت أصحب زوجتي معي إلى
الهرم أو إلى طريق السويس في الصحراء ولكني ، برغم
رفع الكلفة بيني وبينها ، لم أكن أجراً على الجلوس معها
في مينا هاوس أو سميراميس مثلاً ، مخافة أن تقترف هفوة
تناقض قواعد البروتوكول

أردت تذكير زوجتي بقرب موعد زيارة أبويها ، فقالت
ما قصدك من التذكير؟ قلت قصدى إكرام إنسانين تفضلا
فوهباني أئمن قنية في الوجود أجلسها على عرش قلبي ،
قالت : إني أتغاضى عن القنية وشاريها وواهبا ، ولكني
أود معرفة المخلوق الذي طرق باب قلبك قبل وهل ما زال
حيا فيه ؟

توهمت في هذه اللحظة أن صفحات الماضي بسطورها

العريضة ، ودفاتر المذكرات العشرة ، وحوادثها الواقعة
وشخصها الحي ، وصورة الدارة القديمة تضعها زوجتي كلها أمام
عيني فقلت متجلدا ما معنى هذا السؤال ؟

قالت وهي تزم شفها سنترك هذا الموضوع إلى
ما بعد انتهاء زيارة والدي .

قلت سنقحم إذن على الموضوع استجوابا آخر
وهو : هل أنت متعلمة أو غير متعلمة ؟

ضحكت طويلا ، وقالت : أما كان الأجدر بك طرح
هذا السؤال يوم شرفتنا بالزيارة الأولى في بيت أبي ؟
قلت كان الواجب يقضى بذلك ، ولكن جاذبيتك
وصمتك من ناحية ، وتفاني أمك في عمل ما يرضيني
من ناحية أخرى ، ثم طيبة قلب أهلك ، وثورة نفسه ،
وسطوته ، وحملته على الجيل الحاضر ، كل هذه العوامل
متجمعة كانت تلاحقني وتتناشني ، ولكنك أنت أنت
بما فيك من هدوء نفس ، وحلاوة نظرة ، وعزوبة صوت
أنسيتني أهم أغراضى وأقدس مبدأ لي في الزواج ، وقد

تنازلت عنها تنازلاً مطلقاً ورضيت مكثفاً بك ، بما
فيك ، لأنك أنت أنت

قالت وقد دنت مني وألقت كفها على كتفي ، ألا قل
لي بحياتي عليك ، ما كان رأيك في الزواج ، وما هو
مبدأك ذاك فيه ؟

تعملت عنجهية الزوج صاحب السطوة وزويت ما بين
حاجبي وقلت ، سنترك الموضوع إلى ما بعد زيارة والديك لنا
قالت وقد نظرت إلى بطرف فآثر أن تنسى أن التعجل
وحب الاستطلاع هما في مقدمة طبيعة المرأة ؟

قلت : ألا تسمعين قول الحكيم « العقل في الصبر »
قالت : الصبر مرّ

فقلت : المعاناة حلوة

حضر حمى وحماتي لزيارتنا فاستقبلتهما « صفاء » بالترحيب
وكذلك احتفت أنا بهما ، وبينما كنت أنا وحمى نشرب القهوة
كانت « صفاء » تطلع أمها على كل غرفة بالبيت ، وكل
طرفة من أوان وصور وتماثيل ، ورأيتهما تجوبان حديقة

الدارة وحظيرة الدواجن وتقنان طويلا قرب أصص
الأزهار النادرة .

فرحة الأم بزواج ابنتها لا تضارعه فرحة ولا تقارن
بفرح الأب ، وإحساس الأم بسعادة ابنتها يكسبها عزة
وقوة ثم ميلا إلى زوج ابنتها ، أما العم فيعتز بصهره
ويفاخر به ، وقد تبينت ذلك في إشراق وجه حماتي
وابتسامها العريضة ، ومن الدعاء لي ، ومن عدم تمهلها في
الاعتراف بفضل الله على ابنتها التي سعدت بزواج طيب
مثلي ، وكانت ، مدة إقامتها بيننا لا تتخرج إلا من خادم
المائدة ، ولا تعترض إلا على وجود هذا الخلاسي بيننا
ينصت إلى حديثنا ، ويراقب أقوالنا وأعمالنا ، ويطلع
على أسرار البيت وقد ينقلها إلى زملائه من الخدم وإلى
من يعرف من الناس ، وقد تعهدت بإحضار فتاة خادمة
ريفة تنوب منابه في عمله ، وسكتت عن زميله الطاهي
الخلاسي أيضا لأن مقره « البدروم » وقد لامت ابنتها
على ترك مؤونة البيت ومفتاح « الكرار » بيد الطاهي
لا تحت إشراف سيدة البيت . أما حمي فلم يكن

يلتفت إلى شيء من ذلك، بل كان همه الذهاب في الضحى
إلى زيارة زملاء له عرفهم منذ حادثة «الورداني» و
«بطرس» ثم التنقل بين «جروبي» و «كازينو الأوبرا»
يتسقط الأخبار، وأكاد أقول من مصادرها، ويعود
إلى البيت فيرويها رواية الواقف على بواطن الأمور
و خفاياها

كنت ألفت لنقد حماتي وملاحظاتها على ابنتها، وأصغى
لحديث حمي، وأنصت إلى سماع أخباره، ولا أعلق عليها مخافة
أن تندّ كلمة مني تكون قابلة للتأويل وفتحة لنقاش أتحاشاه
ولا أريده

كان إحساسي بوجود حمي وحماتي عندنا إحساسا عميقا
بأنهما والداي، وإني وزوجتي في رعايتهما وكنفهما، ومن
عجب أن زوجتي شعرت ببعض قيود تقيد حريتها،
وبعض تصرفات شكلية بسيطة تحد من استقلالها،
والأعجب من هذا أن حماتي استشعرت إحساس ابنتها
ولذلك لم تطل مدة إقامتها معنا.... وقد عادا إلى
«قحافة» .

وما كادت السيارة التي حملت حموى إلى ضيعتهما تباعد عن البيت حتى رأيت زوجتي ترمقني بنظرها الأخاذة وتقول بصوتها اللين الناعم أحسب « أن الصبر أخذ يضيق بالعقل » قلت : ماذا تعنين ؟

قالت : أعني الفتاة الأولى التي فتحت باب هذا ، ولا أريد معرفة من صال فيه وجال بعدها ، وأشارت بأصبعها إلى الجهة اليسرى من صدرى

ولما كنت ميالا بطيغتي إلى المعابثة والمماجنة وكنت قد أتممت معدات السفر ، قلت أجيها على سؤاها بصوت نبراتة جافة ، هذا موضوع رصين يحسن بحثه حين نستقر في مصيفنا في اعالي جبال لبنان

قالت والدلال يرتسم في قسماتها وحركاتها ، ذلك ما كنت أنتظره منك ، التأجيل ثم التطويل ، أما الآن فقل لى بربك كيف السبيل الى جبال لبنان ؟ اذا كان السفر بالطائرة فانى أخشى السقوط ، أو بالباخرة فانى أموت خوفا من ركوب البحر ومن أن أكون زادا شها للسماك

قلت : ألم تعد فعل ما أفعل ؟

قالت : بلى

قلت : سواء أكان سفرنا بالطائرة أم بالباخرة فإنى سأكون

إلى جانبك ، أعنى بك أولاً ثم بنفسى .

قالت : وهى تتعمل الجد ، أريد معرفة بواب قلبك وهل

بقى المفتاح معه حين ولى ؟

قلت : وقد قلدها فى موقف الجدى المتكلف ، قضية البواب

مؤجلة إلى جلسة تعقد فى أوائل شهر يوليو فى أعالى لبنان .

قالت : وقد اتخذت وضعة الطفل الحردان ونزعته وتحديه ،

إذا كنت لا تريد الاعتراف بماضيك فأنا الذى أبدأ به ، لأن

لى ماضياً ولا بد من إطلاعك عليه ، لأن ذلك أمر واجب

على ، أتريدنى يازوجى العزيز أن أبدأ اعترافى ؟

قلت بصوت الضيق الصبر ونبراته الرنانة هذا

موضوع يحسن إضافته إلى ما سبقه من مواضيع مؤجل

بحثها إلى حين نصل إلى لبنان ...

إثنت غضبى وراحت

قلت للخادم أن يعدّ لى فنجاناً من القهوة

لدخان اللغائف يا صاحبي روح كما أن للقهوة روحا ،
 تناجيان الفكر وتطلقان الذهن في رحاب الكون ترسمان
 للمخيلة صوراً مختلفة الأوضاع والأحجام والإبعاد والألوان
 والأطراف ، وكنت أنظر إلى حلقات الدخان تنداح وتتلاشى
 وكأني بها قبل تلاشيها كانت تردد معي ما كنت سمعت من
 أقوال زوجتي المعابثة المداعبة يرددتها ذهني « زوجتك لها
 ماض زوجتك تريد الاعتراف زوجتك
 ترى الافضاء بماضيها إلى زوجها » لقد
 رددت هذه العبارات في ذهني عشرات المرات وأخيرا وقد
 مللت من التكرار سألت نفسي ماذا ترى يكون ماضى فتاة بكر
 عاشت في ضيقة متواضعة بعيدة عن المجتمع ؟ أرحت ذهني من
 ترديدات لا تجدى سوى تمهد السبيل للاخيلة المزجة ،
 والتخمينات المقلقة ، التي تجعل الرجل أكثر طلعة وأقوى
 فضولا من المرأة المحبة للاستطلاع .

توهمت أن أفكرى غير مبلورة ، وأن قدحا من
 الشراب يساعد على صقلها . . . وما كدت أرطب

جوفى بالقدح الاول وأقدح زناده فكرى بالثانى حتى
رأيت زوجتى مقبله مرتدية الثوب الفضفاض الذى تستريح
هنى إلى مرآه فهضت للقاءها

حيثنى بانحناءة وهى ترفع طرفى ثوبها ، وتقدمت خطوة ، وقد
شمخت برأسها وقالت « سيدى أنا « صفاء » زوجة الدكتور...
الحائز على الدرجة العلمية فى جامعة فى ألمانيا... ودرجة
دكتوراه فى الآداب من جامعة كذا فى إنجلترا... ودرجة
كذا فى الفنون من معهد كذا فى فرنسا... والأستاذ فى علم
الآثار بجامعة.... والمحاضر فى الجامعة الشعبية فى الأدب
المقارن بين حتشبسوت ونازلى وبين... ووضعت
أصابعها على جبهتها تتذكر... فهضت واقفاً فمدت
أصابع كفى اليمنى فلصقتها على فمها بقصد إسكاتها وقلت:
خل هنك هذا البحث غير الموضوعى الآن وابقه إلى
أعلى لبنان. ضحكت من دورها التمثيلى وضحكت معها
ونحن كطفلين

وقلت لها ، فى الساعة العاشرة من صباح الغد تنقلنا طيارة

إلى لبنان فنتناول طعام الظهر في بيروت والعشاء في

«أهدن» عند سفح الأرز الخالد

قالت : ما أشد لهفي على «جبران» ورغبتى في الوقوف

على ضريحه وزيارة متحف رسومه .

قلت : هل قرأت كتب جبران ؟

قالت : أجل وقرأت مؤلفات ميخائيل نعيمة المستقدس

أيضا

إسمع يا صاحبي ، إن العين الباصرة واحدة في كل زمان

ولكن علام يختلف نظرها إلى الأشخاص والأشياء

في الليل عن النهار؟ واللسان الناطق واحد ، كذلك مخارج

الصوت فلم يترقق ويتناعم في الليل ويتخاشن ويستجش في

النهار؟ ثم الاحساس لم ترهفه الظلمة ولا يتبادل ويتخدر

إلا في النهار؟ ألاها عين ولسان وإحساس إنسان؟

وقال : الحرب الحيوانية هي السبيل إلى أحياء الحياة ،

والقتال هو الوسيلة إلى تمهيد طريق الحياة ، والعراك والدفع

والجذب والعض واللم إنما هي أدوات حرب الحياة لبقاء

الحياة، أليس عجيباً أن يتسلح الإنسان بسلاح الحيوان؟
هكذا قضيت وزوجتي ليلتنا في حرب الحياة قبل وداع

مصر هرباً من حرها الشديد في شهور الصيف !!؟
يقولون يا صاحبي أن الأرض تدور، أو هكذا تعلمنا في
المدرسة، وفي الواقع أني لم أرها تدور ولا شعرت بها قط،
ولكن ظل الشمس هو الذي جعلني أقدر دوراتها، ولم أرقطها
الذي تدور عليه إلا ساعة كنت في الطائرة وهي محلقة، لقد
رأيت الطائرة كأنها ثابتة في مكانها، ورأيت الأرض تدور من
حولها أو هكذا خيل إلى !!!

ومن ظريف ما أرويه في هذا الصدد، هو
أن زوجتي سألتني قائلة: لقد أحسست بقيام الطائرة
وإارتفاعها ولكني لا أحس الآن بسيرها ولا أشعر بأنها
تتقدم، في هذه اللحظة خطرت المضيضة الحلوة بقدها
الأييف تحمل طبقاً من الشطائر وآخر من الحلوى
فتناولنا منها ما يكفيننا ثم أخذنا نحتسى القهوة ونثرثر

قلت لزوجتي أن تطل من النافذة لتشاهد جبال لبنان

الحُضراء، فلما أَطَلَّت ورأت الأرض قالت: أحس الآن فقط أن الأرض تدور هذا « فعل السرعة » وقد سرّت بأننا قطعنا المسافة الطويلة بين مصر ولبنان في وقت قليل، وفي راحة لم يشبها تعثر في فجوة أو مطبّ في الهواء ... وقد بلغنا بيروت ...

إني لأحمد الله على أن إقامتنا في تلك المدينة القائضة لم تطل، بل حملتنا سيارة إلى نهر الكلب نطعم عند ضفته نرتوى من مائه النقي العذب

كثيرة يا صاحبي الأقوال التي ترددها الألسن على اعتبار أنها حقائق ناصعة، والأكثر منها الاستشهاد ببيت من الشعر كأنه من الآيات البينات، بيد أن وقفة واحدة عند هذه المأثورات كفيّلة بتعريفها ونزع قدسيّتها عنها، ومن هذه المأثورات غير الشعرية كلمة « شهر العسل » وفي اعتقادي أن حلاوة الزواج ليست في اليوم الأول ولا في الأسبوع أو الشهر الأول، بل في ارتفاع الكلفة بين الزوجين، وفي السعي الخفي إلى تعرف المِشَارِب وتفهّم الميول، ثم البدء في توثيق روابط الزواج

المقدس لبقاء النسل بلفتة قلب الى لفتة قلب لبناء الأسرة ،
وقد اندمجت روحى بروح زوجتى ونحن فى لبنان ، إذ
كنا طوال الوقت جنبا إلى جنب

فى عشية أحد الأيام وقد أخذت الشمس تللم أشعتها
من على رؤس الجبال المكسوة بأشجار الارز، ولم يبق سوى
الناصل من ألوانها ، وقد بدت العتمة تنشر جناحيها
وتمد رواقها الظليل على الناس فتريح العيون والنفوس ،
فى تلك الساعة من الساعات الساحرة فى جوّ لبنان
وقد كنت منتشيا لا من رحيق الرفيق الحبيب ، ولا من
تبه الشمس ودلالها وقت الغروب فحسب . بل كنت
متخدرا من تدخين نار جيلة تقسر مداعب أنفاسها
على انجذاب روحانى وشعور رفاف رقيق بمعانى سحر
المرأة وفتنة الطبيعة . فى هذه اللحظة الصوفية ، مالت
زوجتى نحوى تقول : أحس بنشوة من نسائم الاشجار
العطرة وبانشرّاح يدعوانى إلى التحدث اليك عن ماضى فهل
لك أن تصغى إلى ؟

قلت : الاعتراف الموعود ؟

قالت أجل الاعتراف لك بماضي ، وقد حدثت في كأنها
تقرأ في عيني سطور معرفة « الاعتراف » وترى وقعه في نفسي .
فتحت عيني وبسطت قسبات وجهي للمفاجأة وقلت :
الاعتراف ... الاعتراف الخطير ؟ ... لاشك عندي
أن اعترافك خطير جدا ... هات اعترافك ... إني جد مشوق
لسماع الاعتراف ولكن ... ولكني أحمد الله أولا
على أن ليس في قرية « أهدن » معقل الموارنة مأذون
شرعي ؟!! ثم استبدلت لهجة الاستهجان المفتعلة بنبرة الأستاذ
النقادة وقلت : كنت أحسب أن خاصية حب الالتفات إلى
الوراء ، والرجوع إلى الماضي واجترار أحداثه وقفاً على
رجال السياسة المحترفين دون النساء

قالت : وقد ثنت عنقها وأرخت جفניה ، وأحنت رأسها
في استحياء ، أرجو يا زوجي ألا تضحك مني ، لأن
ليس الاعتراف بذاته هو الغاية ، بل المتقدم عليه هو
الاقرار بحملك أولاً ، فقد جعلتني أكسب الثقة بك وقد

وضعتها بجعلتها فيك ، وأنى لأعزبها اعتزاز الغنى بغناه
والقوى بقواه ، لقد أردت بكلمة إعراف محو ما قد جال
في خاطرك وطاف في مخيلتك من صور لنزوات الفتيات
ونزعات الطائشات إبان اجتيازهن مرحلة المراهقة
وأعصارها الجارف في الوسط الجامعي وهو يجمع بين
الجنسين دون أن يحسب للاختلاط حساباً .

قلت ما شأن الجامعة وطالباتها ؟

قالت ولم تجب على سؤالي وهى مطمئنة وقد وضعت
كفها في كفي : أرجوك مرة ثانية إستبعاد سوء الظن عن
خاطرك ، لأنى تعلت من الأمريكان في جامعتهم بالقاهرة
معانى الحرية قولاً وفعلاً ، والاعتداد بالنفس حسياً ومعنوياً
بلعت ريقى حين سمعتها تقول أنها تعلت في الجامعة ،
بيد أنى كنت راغباً في الزواج من ريفية سليمة الفطرة ،
وأيقنت أننى نقضت قرارى في الزواج ، وناقضت نفسى
في مبادئى ، وألقيت بها لأحكام القدر ، فيا ويلي منه إذا
ضحك منى !!

قالت مستطردة: كنت القروية الوحيدة ، أو بعبارة أخرى كنت الطالبة الوحيدة غير القاهرية في الجامعة الأمريكية جاءت لطلب العلم مدفوعة إلى طلبه لذاته برغبة مستمدة من نفسى إقتداء بوالدى المحب للطالبة والدرس ، ومضيت فى طريق كان ينيره الأساتذة بمحاضراتهم ، وفى انكببى على مطالعة الكتب التى كانوا يرشدوننا إليها ، ولم أكن أبالى إذا كنت الناجحة الوحيدة بين الفتيات الطالبات أترابى ، أو المتفوقة على الطلاب أقرانى وأندادى ، لأنى كما قلت كنت مأخوذة بحب العلم للعلم .

سألنى مرة زميل لى أن أشرح له نظرية كنت أناقش الأستاذ المدرس فيها ففعلت ، وعاد فسألنى مرة ثانية فثالثة أن تتناقش فى دروسنا وفيما نقرأ ، مشيت أشواطاً طويلة فى المذاكرة والنقاش والبحث مع ذلك الشاب داخل أسوار الجامعة ، ولم أمانع فى انضمام أكثر من طالب من زملائنا إلى حلقتنا التى كنا نعقدتها فى حديقة

الجامعة ، ولم ألتفت إلى تخرصات الفتيات زميلاتي في
الاختلاط بالطلاب .

ومن عجب أنى صرت على غير قصد ألتفت ، بل أخذت
أنظر عن قصد إلى هذا الطالب أو أراقب ذاك ، أجدني الواحد
ميلا إلى سماع النقاش والحوار ، بينما الثاني يشترك فيه ، أما
الثالث فقد كان يطيب له الانحراف عن الموضوع ليشير
مسألة أخرى أو يظهر شخصيته كمخلوق له خطر وشأن
وكذلك كان فيهم

فقلت أقاطعها شأن الأستاذ الضيق الصدر ، يوجد
فيهم أيضا من يحب إرضاء رغبته في الكلام ، وفيهم من
يؤثر التقاط المعرفة بالسمع وتفهمها بالعين ومن العين .
ومن التجاوب النفساني . إلى آخر ما هنالك من طبائع
أعرفها ثم ماذا ؟

قالت تتم كلامها كأنني لم أعترض على تبسطها ،
كان لكل طالب انسياق داخلي يدفعه في طريق واحد
أو يزجّه في عباب معمة لا تتبدل إلا بوعي وإرادة ،

وكنت أرى طالبا لا ينفك ينظر إلى نظرة محقق لم أتبين
معنى جوعها آنذاك، وكان بصرى يطرف كلما وقع
على بصره

سألت مرة ذلك الطالب عن معنى تحديقه فأجاب كالمهموم،
أحسّ عندما أسمعك كأنى مأخوذ أو منجذب بقوة لا
مناص لى من الاستسلام اليها، أو كأنى ملقى فى صحراء
من السهوم وركود الذهن، فأرى وكأنى لا أرى، وأسمع
وكانى لا أسمع، وعلى الجملة أنى أكون فى شبه أغماء ذهنى
قلت أسأله معنى هذا الوصف المنحرف الخالى من
المنطق فأجاب: أتطلبين منطقا سليما من ذهن راكد؟ ولشد
ما ثارت دهشتى عند ما رغب إلى ذلك الشاب بعينه الابتعاد
عن رفاق الحلقة لأنه يوترنى لنفسه ويمينى بالزواج
لم يكن ذلك الطالب من المتفوقين على أقرانه، ولا
من المنكبين على المطالعة، ولا ممن ينتظرهم المستقبل الزاهر،
وكان لا محيد له عن ذلك — هذا إذا نال شهادة الماجستر —
من شق طريقه فى الحياة معتمداً على نفسه، بل كان

ملزماً بالبر بوالديه يفهما بعض ما يقرضانه من مال شيخوختهما ،
وقد تبين لى فيما بعد ، أن ذلك الطالب المسكين لم يكن الوحيد
بين زملاء الحلقة ممن أراد الاستئثار بى ، بل رغب إلى كل
واحد منهم فيما كان رغب فيه زميله ، وأنى كنت محور تلك
الدائرة وروح تلك الحلقة ، وأن العلم والمعرفة ما كانا سوى
وسيلة إلى صلة الرجل بالآثى ، وأن ما من واحد من أولئك
الرفاق كان أحسن حالا ، وأوفر مالا ، وأبعد نظرا فى مواجهة
الحياة وتحمل مسئوليتها من رفيقه

قلت وقد رفعت يدي كإشارة للاعتراض كشأن الطلاب
عند سؤال المعلم ، لقد قضيت فى المقدمة على الجملة من المريدین
والراغبين دفعة واحدة ، ولكن ألم يكن بين أولئك المناحيس
من كان يستأهل عطف الأنسة ورضاهها ؟

فأجابت : كنت أود أن أحقق رغبة واحد من أولئك
الفتيان الأصحاء أتم به غايتى فى الوجود ، ولكن التمنى ليس
الحقيقة واستطردت تقول :

شعرت بميل نحو واحد من الطلبة فأنجذبت إليه ، فتقربت
منه ، فتصاحبنا ، وإذا بى أحس أنى أحمله ما لا طاقة له باحتماله

وأرهبته بضمن مقعد في السينما لا قدرة له عليه ، وأشغله عن مواصلة دروسه واتباع مطالعته ، أخذت أشعر بانحراف ذهني وصدوف عن العلم ، وبالاستغراق في السهوم الطويل والركود المتواصل . لقد قتر نشاطي ، وكلت ذاكرتي ، وخبّت جذوة حماسي في النقاش والمحاضرة والدرس ، وغدوت لا أفكر في شيء ، ولا أرى أمام عيني إلا خيال ذلك الشاب الرصين الذي صرفني بسلام بكلمة واحدة لا أنساها

وقد أيقنت بعد تحليل ذاتي قرأت سطورته في صفحات نفسي ، أن أمري سيؤول إلى الاقتضاح ، وسرى سينكشف أمام أساتذتي وزميلاتي . وأنى ضعيفة لا أقوى على مقاومة تيارات الشباب الجارفة ولا الهروب من هذه العاصفة التي هصفت بي . لذلك عقد النية على ترك الجامعة والعودة إلى بيت أبي ، لا أريم حتى أموت أو أنقل إلى بيت الزوجية .

عدت إلى البيت دون أن أودع أحداً من زملائي ، ولم أعبأ بمشيئة أبي الذي أراد أن يصيرني مدرّسة أو مفتشة بوزارة المعارف . وقد أدركت أنني كنت مخطئة في سلوكي

الطريق الذى يودى إلى تحقيق غايتى ولكن التيار كان عاصفاً
والارادة متخاذلة .

صفقت تصفيق الاستحسان وقت فشكرت «الأستاذة»
المحاضرة على حسن بيانها ، ولكنها استمهلتنى حتى
تم كلامها الذى لا يعدو أن يكون مقدمة « للاعتراف »
فقاطعتها معتذراً بدنو وقت الطعام . وقد أدركت ان حكايتها
هى حكاية ثورة الشباب وقد اجتازتها بالهرب منها إلى العزلة .
وبينما كنا جالسين حول مائدة الطعام كانت زوجتى تنقد
كالعصفور طعامها من هذا الطبق لقمة ، ومن ذاك لقمة أخرى ،
ولكن شهوة الكلام كانت حوامة حول شفيتها متوثبة
للاعتراف فسألتها وهى تنقر الأطباق بشوكتها أجرادة أنت أم
نحلة أيتها الشيطانة المتفلسفة ؟

قالت وقد لقيت منفذاً للكلام « كل فتاة جرادة ونحلة
وبالعكس . لأن القفز والتطلع والفضول والتذوق هى أخلاق
أصيلة فى طبيعة المرأة يستحيل اجتنابها . وأن الفتاة متى فرغت
من تمثيل دور الجرادة تتحول إلى نحلة تأخذ فى بناء وكرها
وتدأب فى تنظيمه ، تملأ خلاياه بأولادها وهم شهد الحياة .

قلت : أفى ميدان معركة طعام نحن أم فى حلبة
معركة ذهنية ؟

قالت : نحن فى ميدان تعارف فاتنا الصولان فى رحابه قبل
الزواج ، أليست شهور الخطبة قد جعلت للتعارف ؟ وأردفت
تقول « أعدك بان سأجعل بيتك مأوى للراحة والغبطة
ترفف فوقه ألوية المحبة والسلام » فقلت أأقلد صوتها الأغنى
« لقد أدرك شهر زاد الصباح وسكتت عن الكلام المباح »
وأخذتها من يدها إلى غرفة النوم فكانت تحتج وتقول
أنها ستبوح لى الليلة بكل شىء ولا يكون شىء مكتوم عنى
بعد الليلة .

تجلت زوجتى فى اليوم التالى بنضارة المرأة الناضجة
وتبدت كشجرة التفاح فى بدء فصل الربيع ، تتمايل أغصانها
اللينة، ويفوح عطر أزاهيرها ، وتبتسم براعيمها ابتسامة مشرقة
للحياة ، تضحك لى حيثما ملت وتدنو منى إذا ابتعدت عنها ...
فلما دنا وقت العشاء وجلسنا حول المائدة قالت : أيطيب
لمولاي شهر يار سماع بقية حكايتى ؟

قلت : أحكاية ليلة أم ألف ليلة ؟

قالت : هي حكاية نكفربها عن أيام الخطبة وقد تبخرت

أخيلتها الجميلة بفعل التزمت والتمسك بقديم العادات

قلت : لقد اختزلنا تلك المرحلة وعبرنا نهر الخيال

فبلغنا شاطئ الحقيقة أليس كذلك ؟

قالت : بلى وقد أشرق وجهها وخفضت طرفها .

قلت : لتكلم شهر زاد فان شهر يار مصغ إليها .

قالت : أنى أحمد لشهر زاد تلك المرأة البارعة التي عرفت

كيف تسوى بين العاطفة والعقل

قلت : لاخوف عليك منى فليست بناقم على وافيات العهد

من بنات جنسك .

قالت : أنت أول قاض حكم للمرأة بالوفاء . . وأن محور

حكائتي يدور حول الوفاء فقمنا ، فجلسنا في الشرفة المظلة

على الوادى الساجى على ضوء القمر فقالت « عاد شاب كان

يعمل في الاسماعيلة مع الإنجليز فأحدثت عودته في قريته التي

تجاور قريتنا حركة غير عادية وفتحت بابا للكلام عند الفتيات

والنساء كما عند الرجال ايضاً ، وما لبث الحديث أن تركز في بيتنا واستقر فيه ، وأخذت عيون الناس ترمقنا وألستهم تلوك خبر مجي والده العمدة يخطبني لابنه .

رضى والدى بتزويجي من ذلك الشاب الذى قال لى عنه أنه يعرفه منذ كان طفلاً يحبو وغلاما هجر القرية ، ويعرف أن لأبيه العمدة حكاية طريفة سيحكها لى فى فرصة أخرى ، وقال يطمئنى وهو يربّت كتفى بأنى سأكون سعيدة بالزواج من هذا العصامى الذى صير نفسه رجلاً برغم تقلب أحداث الشقاء عليه ، وقد بالغ فى وصف طموحه وأردف بأنه دعاه وحده لتناول الطعام معنا يوم الجمعة المقبل .

قلت : أعنى أن والدك جعلك أمام الأمر الواقع .
 قالت : هو ذاك ، وقد أجلسنى قبالة ذلك الشاب على المائدة ... ليس والدى كما عرفت من ضيقى الذهن ولا هو بالمتهاون فى العرف ، إلا أن تسامحه أو تمسكه بالتقاليد رهين بالظروف لقد تقدم شبان من قبل

الى طلب يدى ، فكان والدى لا يسمح بظهورى أمامهم بينما
كنت أمشى فى شوارع المديرية سافرة الوجه حاسرة الرأس ،
أما فى هذه المرة فقد جعلنى أشعر أنه يدننى من زوجى العتيد
سأعفى نفسى يا زوجى العزيز بل أرجو أن تعفنى من
وصف وقع تلك المقابلة فى نفسى ، لأنها أشعرتنى برعشة
تحولت بلحظة واحدة إلى رجفة سرت فى جسمى فأيقظت
ذهنى ليعى كل كلمة أو نأمة ، وتنهت عني لترى كل حركة
وتقدر كل اشارة ، تميز القسمات والتقاطيع ، تنقد
وتقرظ ، ثم عدت الى داخل نفسى أتحسس مركز استقرار
الرعشة الأولى ووددت لو تعود .

ضحكت يا صاحبي فى سرى من طلبها الاعفاء وقد باحت
بشعورها فوصفته أدق وصف وقد استطردت : لقد أعفيت
نفسى من وصف تلك المقابلة لأكتفى بالقول بان ذلك الشاب
أخذ يخوض فى حديث الحرب ، يشرح موقف الإنجليز من
خصومهم ، وموقف مصر من الأمبراطورية البريطانية ، وقال
أن الإنجليز سيربحون الحرب لا بسلاحهم الفتاك بل بمتانة
أعصابهم وصلادة أخلاقهم ثم باساليهم فى تسخير القوة للعمل ،

وتسخير الرجال بالمال ، وتمنى أن يخذو كل مصرى حذو هؤلاء الأعداء فى تقويم أخلاقه لنظفر بالحياة ونستمتع بالحرية كاملة بالاعتماد على النفس وحدها .

صمت هنيهة ثم صوّبت لى نظرة وقالت بدلال :
أياذن مولاي بان يكون اعترافى عاما ليكون غفرانك لى كاملا ؟

قلت بكبرياء المتعاضم : لا عليك .

قالت : لقد أويت إلى سريرى وأغمضت جفنى لأرى وأسمع ما انطبع فى ذهنى ، وأخذت أراجع حديث ذلك الشاب وأستعرض لون عيذه وبريقهما ، وطرفات جفونه ، وقسمات وجهه ، وغلظ شفته السفلى ، واتساع جبهته ، وكثافة شعره ، ولوازمه فى الإشارة والحركة وترديد الكلمة ، كما لاحظت قوة عضلاته ، وسعة كتفيه ، وكبر كفيه ، والتفت بنوع خاص إلى معانيه وقد استمدّها من بداهة الذهن ، ونقاء السليقة ، ثم زمت حاجبيها وقالت بلهجة المقرر : لم أرفيه مسربا من مسارب الثقافة أو طريقا

من طرق العلم إنما كانت معارفه مكتسبة عرفها من
كلماته ومفرداتها المحدودة ، إنما لمحت فيه عزيمة وثابة
تسطع من نظراته ، ومن زمات شفثيه ، وتودّج عرقين
في جانبي عنقه ، ومن توتر أصابعه ، فقلت في سرى
أن رجلا هذه سجاياه وخلائقه وصفاته ، قد يعطى
المرأة بسخاء وجود وبأسراف أيضا ، أما إذا انحرف
عنها ، فأنما يكون انحرافه انصرافا كليا لا رجعة بعده ،
والويل لها إذا كانت لا تدرك يدها بواعث إقباله عليها
وانصرافه عنها .

أخذت أستحلب ريقى الجاف ، وأسأل نفسى آية
فتاة هى زوجتى هذه ، ومن أكون بالنسبة لذلك الشاب
الذى وصفته ؟ لقد كتمت خاطرى برشفة من فنجان
القهوة وبمداعبة مبسم النارجيلة والانتباه إلى الحديث .
واستطردت تقول وهى تثبت النظر فى عيني : لقد
ألهمت هذا الحكم على ذلك الشاب المتوفز الهمة ، ثم
وازنت بين صلابتى وقد نجوت من تيارات الشباب الجارفة ،
واتصارى عليها بالحرمان والكبت وقد أخذت أقرع أبواب

الثلاثين من عمرى . وقارنت بين الأشياء التى تعلمتها
وحشرتها فى دماغى ، وازنت كل ذلك وقارنته
بذلك الشاب الذى مازالت أنسجته نقيه كما براها خالقها
فقلت أن البرزخ الذى يفصل بينى وبينه إنما هو برزخ جدّ
بعيد ، وتمنيت لو أهبط إلى مستواه فى العقل الفطرى ،
أو يرتفع هو إلى مستوى عقلى النصف لالتقى هنا عند سفح
فكر واحد كما نلتقى هناك بالغريزة عند نقطة واحدة؟؟ ...
ولكنى قبل أن أسلم أجفانى للنوم ومستقبلى للقدر ، كنت
وطدت العزم وعقدت النية على الأخذ بيد ذلك العصامى ، أو
نبت الشيطان ، كما يقولون لأرفعه إلى مستواى .

قلت بلهجة الزوج الموتور يتصنع المرح ... وقد سكنت
شهرزاد عن الكلام المباح ، وقمنا إلى غرفتنا وتوسدت
فراشى أفسح المجال لوعى الباطن يستوعب على مهل كل
كلمة ومعنى فى حديث زوجتى ويتلصص الآثار الباقية من
تلك الواقعة الرصينة فى مطلع حياتها .

وفى صباح اليوم الثانى نهضت زوجتى من فراشها

وكانت بسماتها تشف عن الرضا والفرح بالحياة . وقد راق
لى ان أقصى ذلك النهار فى مطعم عند شجر الأرز من فوقه
الثلج الخالد على قمم الجبال . وهناك استأنفت زوجتى
الحديث فقالت :

إنتشر خبر خطبتى بين الأهل والمعارف فاقبلوا رجالا
ونساء ، «فرادى وجماعات للتهنئة ، يدعون للعرسين بالرفاء
والبنين . ومن المضحك والمخجل معا أن زغاريد النساء
كانت أشبه بأسراب الحمام ما تكاد تحط حتى تنطلق ،
وكنت أضحك وأعجب فى وقت واحد من هاتيك اللسنة
تتحرك لتعبر بالزغاريد عن أحاسيس النفوس بالفرح .
جاء والدى ذات عشية ، يعلن مجئ خطيبى لوداعنا
قبل عودته إلى عمله فى معسكر الاسماعيلية .

كتمت فرحة شاعت فى شيوخ الصبح عند الانبلاج
وأحسست بالشوق لتلك الزيارة واغتبطت بها قبل حدوثها ،
وكدت أفصح نفسى لفرط ابتهاجى بها ، ولكنى كتمت
شواغرى مهابة من والدى ، والتزمت هدؤا ما لبثت أرسنته أن

انفلتت من قبضتي عندما طالعني وجه خطيبي الحبي ، ووضع
كفه بكفي للسلام

أدرك والدى ما يجيش فى صدرى شاين مثلنا لا هما
مدنيان ألما الحياة الاجتماعية فتسلحا بسلاح المناعة الاخلاقية
ولا هما قرويان كبلتهما عادات وقيود عتيقة بالية... لم
يدرك والدى ذلك ببدايته ، بل عرفها من عيوننا
النامية ونظراتها الواشية فقام يتشاغل عنا وقد دعا والدى
إلى مشاركته فى التشاغل أيضا وهو يعلم أية فتاة هى فتاته
فاضت الطمانينة فيضها على خطيبي وصوب لى نظرة
هادئة وأراد أن يتكلم فارتج عليه الكلام .

صمتت هنيهة ثم قالت مرة ثانية : هل يسمح لى زوجى
العزیز أن أتجاوز عن ذكر عبارات خطيبي ذاك وأن أعبر
بلسانى عن بيانه ؟

قلت : أتقوين على المحافظة على روح الكلام ؟ فأجابت :
كل شىء يفنى الا الروح ، وكل ما يلتصق بها يخلد معها ،
ثم قالت : قال خطيبي وقد أطرق برأسه ونكس بصره ،

يحسن أن أقول لك من أنا قبل أن تعرفي ذلك من أفواه
الناس .

قلت : إن رضاي بك زوجاً لي يغني عن كل تعريف
فأجاب وقد تضرع وجهه حياء : يجب على أن أطلعك على
سفر ماضى وقد كتب القدر سطورَه بمداد من دموع
الالم ، وأن أبسط صحائف مستقبلنا بيضاء نقية تكتين
أنت حروفها وكتاباتهما وجمالهما وعباراتها وتزيينها بنقط تكون
كالأزهار تزين حياتنا الزوجية

قلت : أنى مشوقة إلى سماعتك متطلعة إلى كل ما تقول .
قال : قيل لي أن والدي لم يطل عشرة والدني وقد
نفر منها نفور الكاره لغير ما سبب واضح أو عذر
مستساغ ثم طلقها ، ولم يشأ أن ينفق على وليده الذي لم
يره ولم يحاول رؤيته قط ، بل أنكره ومنع بنفذه نسبه
إليه ، ولم يلتفت إلى الوسطاء الذين وسطهم أحوالي عنده
لأنه كان كبير الاعتزاز بكرامته وقوته وسلطانه

لم تطل حضانة والدتي لي وقد أسلنتني إلى جدتي قبل

إتمامى السنة الأولى لتستقبل حياة زوجية جديدة . كذلك لم يصطبر القدر على جدتى معيلتى بل مديده اليها فتركتنى أحبو فى الدار ، أو أهيم فى الحارة ، أنام حيثما كان وكيفما اتفق . أتبلغ مما تتفضل على به نسوة أخوالى وكن لا يسألننى أين كنت ولماذا فعلت . أما والدتى فقد كانت تتسلل من بيت زوجها فتختطفنى من الحارة تنزع عنى أثمالى ، وتنظف من قذارتى ، وتطعمنى مما كانت تستبقيه من طعام ، ولكنها كانت تحرم على المجيء اليها ، وكنت أتهيب الرواح إلى بيتها مخافة أن يرانى زوجها فينهرنى أو يزجرنى أو يطردنى ، ولكن سرعان ما تناستنى أمى وقد انشغلت عنى بأولادها أن أنس لا أنس يوم لحقت بفتية وفتيات ذاهبين إلى الحقل للعمل فى جنى القطن وقد وقفوا جميعا أمام رجل مديد القامة يحمل بيده قضيبا من خيزران لدن وقد أخذ يعدّ الصبية واحداً بعد واحد يسألهم عن أسمائهم ، ولما جاء دورى تلعثمت وجمد لسانى لأنى لا أعرف الا أن إسمى مصطفى الرواش وأن أمى اسمها « أمى » ولا أعرف أسم أبى ذاك الرواش ولا أين هو أبى . سألتى الرجل بادية المهابة هل

أملك زوجة الشيخ « حمدان » قلت نعم ، فhez رأسه وسكت .
 جمعت من القطن فى ذلك النهار ما يقرب من الكمية
 التى جمعها قرين لى يكبرنى سنا ، وقد مددت يدى أتناول
 لقمة من هذا الغلام أو كسرة من الخبز من تلك الفتاة
 أتبلغها لأن لا زوادة لى كزودة الغلمان .

ضممت أصابعى إلى كفى ضم الحريص على القرش
 الصاغ التى أعطانيه الرجل الطويل القامة ثنا لزوادتى فى
 اليوم التالى وأخذت أفكر فى هل أشتري زاد الغد من
 البائع أو أطلبه من واحدة من نسوة أخوالى ، وهل
 تعطينى إياه ولا تنزع عن القرش منى ؟

لعقد أعسرتنى تلك العقدة ولم يتسير لى حلها ، ثم زادت
 تعقداً فى نهاية الاسبوع وقد قبضت أجرى من عملى فى
 الحقل قروشاً ، وعندها قلت لا مناص لى للخلاص إلا
 بواحد من أمرين : الاعتراف لأحدى نساء أخوالى
 بأننى أعمل فى الحقل وأربح قروشاً ان لم اعطها إياها
 انتزعتها منى قسراً . أو العمل فى بيت « افندى » يقيم

فى القاهرة يطعمنى ويكسنى وأدخر أجرى عنده إلى أن
أكبر .

إنءسست بين ركاب السىارة الحافلة « أوتوبىس » ولم
أءفع أجر انتقالى إلى القاهرة سوى قرشين ولطمتين وفىض
من الشتاأم انصب على أمدى غير المحصنة وأبى الحىوان الامىن ،
أما بقىة ثمن تذكرة الركوب فقد ءفعها ركاب السىارة عنى
سألت سىءا وجىها هبط من السىارة العمومىة حىن
وصلنا إلى « شبرا » أن أءمل له حقىبة وسلة كاتتا معه ،
فقبل فأعطانى السلة واستبقى الحقىبة لأنى لا أقوى على حملها
وقء بلغنا الترام ، ولم أكن أعرف ما هو الترام فنقءنى
قرشا ففرحت بهذا الأجر السءى .

مشىت على غير هءى أنظر كالمشءوه إلى بىوت شاهقة
وسىارات عجلانة ، وطرق مزدحمة ، وناس منهمكىن ... لم أضل
السبىل لأنه لىس لى هءف ، ولولا إءساسى بالجوع
لكنت شغلت بمباهج المءىنة عن معءنى الخاوىة .

ترءءت فى إنفاق القرش ثمنا لطعامى ، ولكن الشره وشهىة

الطعام هوّنا على إنفاقه ، ثم اخذت أفكر أين أبيت
 تخيرت رجلا من المارة عرضت عليه خدمتي في
 بيته ... سألتني عن رخصتي فلم أفهم ما هي الرخصة وتلجلجت
 فنهزني وأعرض عني ... التفت الى رجل من المارة يسألني
 ماذا أعمل ومن أين أنا آت ، وقد دعاني إلى الخدمة في
 بيته فرضيت .

نعمت في بيت مخدومي ، أطعم بما يأكله أولاده ،
 والبس ثياب نظيفة مثلهم ، ألعب معهم ، وأنام بالقرب من
 غرفة نومهم

ضاق بي البيت بعد حين وقد فرغ من الأولاد لذهابهم
 منذ الصباح المبكر إلى مدارسهم ، وصرت أتشاغل تارة
 بالطهي وتارة أخرى بالغسيل والكي عن سماع حديث ربة
 البيت ، وعن الرد على أسئلتها المخرجة ، والحاحها في طاب معرفة
 سني ، وكنت أهرب منها . . .

غيرني صبية من خدم البيوت كنت ألقاهم عند القصاب
 أو الخباز باني أعمل في بيت مخدومي أعمال النساء ، أغسل
 الثياب ، وأرافق الأولاد في الزهة مثل البنات .

كبر على أن أعير وأشبهه بالمرأة ، وصرت أخجل من
نفسى ومن الخدم زملائى وأخذت أحس بنفور من السيدة
ربة البيت .

لجأت إلى مصنع يديره خواجه إيطالى يخرط الحديد
ويلحمه ، رغبت فى تعلم صناعة اللحام فتعلمت ، وانكبت أتمرن
على خرط الحديد ، لقد شجعتى الخواجة الطيب القلب على
العمل ، وعلى الاجتهاد فى العمل ، وعلى حب العمل فى ذاته ،
ونصحتنى بالابتعاد عن معاشرة العمال زملائى لأن أكثرهم
كسول كذاب مقامر ، أخذت أشعر بشخصيتى أطبع بها عملى ،
وأعز برجولتى يشيد بها الخواجة صاحب المصنع ، خصوصا
عندما كان يعير زملائى بأعمالهم الخالية من الذوق الفنى ويباهى
بعملى الصناعى الملىء بالدقة والفن .

سألته مرة عن الفن فى الحديد المخروط فاجابنى
إجابة لم أفهمها آنذاك ولم أفهم معناها حتى هذه الساعة ، إلا
أنى أدركت أنه كان يريد أن يشبه الفن بالحب ، لأن الحب
فن ، وأن لا فرق بينهما ، وأن كل مخلوق يحب إنما هو فنان
إذا عرف دواعى الحب واستجاباته .

قطعت على خطيبي ذاك استرساله في الحديث وسالته هل أنت تحبني ؟ .

لم يحب المسكين بلا أو نعم ، ولكنه زاد في إطاره وخفض جفنيه وقد اصطبغ وجهه بحمرة الورد ، وبعد هينة عاد يقول قامت قيامة العالم إلى الحرب... استولت السلطة العسكرية الإنجليزية في مصر على مصنع الخواجة ، وبعثت بالمسكين إلى المعتقل في « فايد » وقد استبقت من رضى البقاء في المصنع من العمال المصريين ، أما أنا فلم يطل بقائي في ذلك المصنع لأن « الميجر » وهو رئيس المهندسين أرسلنى إلى « الاسماعيليه » وقد عملت رئيسا أو هو صيرنى عريفا على الخراطين ولاحمى الحديد في ذلك المصنع الكبير .

أخذت مكاتى تتوطد عند رؤسائى وزملائى من الإنجليز وقد تعلمت رطانهم وصرت أسايرهم فى بعض عاداتهم ، أما أجرى فقد تزايد وتزايد حتى بلغ الجنبيين فى النهار الواحد خلاف ساعات العمل الإضافيه .

فى البدء فرحت بالمال كثيرا وكنت أجمع الجنيه الواحد إلى الثانى حتى تجمعت الآحاد فصارت عشرات مللت

الحرص على جنيهاً فأودعتها صندوق التوفير في البريد...
 ضاق الدفتر بما ادخرت لأن الأرقام استوفت قدرها المقنن
 لقيت العمال المصريين في «الاسماعيلية» يقلدون الانجليز
 في شرب «البيرة والوسكى» وفي العريضة والاعتداء على الناس
 ولقيت أكثرهم يتجمعون في الليل حول موقد يدخنون الحشيش
 غير عابئين بالغارات الجوية، كما لقيت نفراً منهم يقضون
 أجازاتهم عند أهلهم.

أنفت أن أكون سكيراً أو عريداً أو حشاشاً جباناً وعزاً
 على أن أكون بلا أهل... لقد تركز الشوق في ذهني وبلغ
 خاطري في طلب رؤية أهلي وبلدي... سألت نفسي هل أخوالى
 ونسوتهم هم أهلى وقد كنت عندهم الطفل المهمل المتروك
 والفتى الضال؟ وأمى... ألم تفن في زوجها وبيتها ألم تنسى،
 وهل نبذتني من قايها؟ ألم أضع من بالها كما أنا ضائع
 هنا في العمل المتواصل والكسب الذى لا طعم له؟ وأبى من
 تراه يكون أبى هذا الذى لم يرد اسمه قط على السنة أخوالى
 ونسائهم ولا على بالى أيضاً إلا يوم خطر لى باعتباط أن
 أرى أهلى؟؟

كنت أضج بأستلى وبخواطرى وكثيرا ما قلت : مالى
أحيى الميت فى بالى وأنبش قبور أولئك الأهل وقد تركونى
أهيم فى الحياة وحدى ؟ بل مالى أضيق بهاتيك الخواطر الملحاحة
وأنا على مثل ما أنا عليه من استغراق فى أعمال السلطة
العسكرية وفى مسؤولية أحمل عبها أنا المصرى فى أوساط
انجليزية تستعبد قومى وتحتل بلادى ؟ !!

أخذت أستمل خواطرى ، وأماطل فى قضاء رغباتى
وأطمئن أمنيى تارة بالوعود وطورا بالتسويق !! وقد حدث
ذات يوم أن تقدمت من رئيسى أطلب منه إجازة أقضيها
خارج « الإسماعيلية » فسرعان ما لى طلبى وزودنى بتذكرة
للسفر بالمجان ويأذن يصرف لى بموجبه مبلغ من المال .

قالت : وقد قامت من مقعدها تتمطى وجلست إلى جانبى
وقد همست فى أذنى ، لقد أزف وقت النوم وسأنام على
ذراع زوجى الحبيب .

نهضت من فراشى مبكراً أستقبل وجه الصباح البهى فى
لبنان ، فاذا به مبرقع ببرقع شفاف من الضباب حجب خيوط
الشمس عن الامتداد على الأرض ، وصدّ الهواء عن الانسياب

رقيقا يداعب أغصان الشجر، وأطلق دموع الندى تقطر فتبلل
البسيطة، وتجهم وعبس فبدا كوجه فتاة غضبي !!

ألفت يا صاحبي رؤية مثل هذا الوجه المقطب في القاهرة
يتلفع «بشابورة» قلّ أن تدوم طويلا أو تصمد لاندفاع أشعة
الشمس، ولكنه في لبنان كرهه بغض لثقل ظله، وكثافة
دمه، وحجبه العين عن الرؤية من القرب فقلت في نفسي أن
الاعتكاف في مثل ذلك النهار كالح الطلعة خير من تعريض
الصدر للضيق والأعصاب للتوتر، وقد رضيت زوجتي
بالاعتكاف والابتعاد حتى عن نزلاء الفندق في ذلك النهار.

في صبيحة ذلك النهار الساخن الجامد، حمل إلينا ساهي البريد
رسالة واردة من مصر ما كاد يقع نظر زوجتي عليها حتى قالت
بصوتها الناعم الهاديء هذا خط أبي. فقلت لها أن تفضّه،
وأن تسمعي تلاوتها

أنصت إلى سماع كلام عمي، وما لبثت مشاعري أن
تيقظت تتلقف كل كلمة وجملّة وعبارة وملاحظة ورأى وارد
في ذلك الكتاب! وقد استرعت انتباهي بنوع خاص، طريقة
تلاوة زوجتي فقد كانت كأنها تتقمص روح والدها في النطق

والإشارة المعبرة وقد أفاضت روحه على الصور وأشاعتها
في المعاني الواردة فيه .

التفت محدثي يقول لى : لست أنقل إليك يا صاحبي المعاني
الواردة في ذلك الكتاب ، ولا ألخصها أو أقتبس فقرات منه
بل أتلوه عليك لأنى حفظته نصا ووعيته معنى ، وسيتقى عالفاً
بذهنى إلى أمد طويل وأخذ يتلو .

صهرى العزيز

سمعت، ولا شك من المذيع خبر تنازل الملك فاروق بل
إرغامه على التنازل عن الملك وذلك فى اليوم السادس والعشرين
من شهر يوليو (تموز) سنة ١٩٥٢

لا ريب فى أن الخبر أفرحك كما أفرح قلب كل مصرى ،
وأشعرك كما أشعره بانزىاح كابوس ثقیل كان جائماً على كل
صدر ، وطمأن كل مواطن بأن الخطر الذى كان يهدد عرضه
وماله وكرامته قد زال بزوال ذلك الطاغية .

وقفت طويلاً يا صهرى العزيز أسأل نفسى لم لم يجهز رجال
الانقلاب على فاروق ؟ وهل من العدل أن يفلت الأثيم من
قصاص عادل ؟

لم يطل وقوفي حيال هذه الفكرة فقد أعلن المذيع خبر
ارتحال الملك المخلوع على الباخرة « المحروسة » التي أقفلت
وستلقى مراسيها وتفرغ حملها الثقيل في ميناء إيطاليا .

لماذا تعفف العسكريون عن القتل ؟ هل حلت بهم روح
من الله فجعلتهم فلاسفة حكماء ؟ أو أن حكمة الأوضاع المقلوبة
التي جعلتنا ننظر إلى القواعد المقررة ، والقوانين المقننة ،
والأقيسة المضبوطة . واستخراج النتائج من المقدمات ،
والاسترشاد بالمنطق السليم نظرة استهانة واستهتار ، أقول هل
سرت حكمة تلك الأوضاع المقلوبة إلى العسكريين فجعلتهم
رحماء ، أو أنهم تعففوا عن قتله لأنه لا يستأهل أن
تتدنس يد مصرى بدمه غير المصرى ؟ أو لأنهم تنبهوا إلى
العواقب والعقاييل ، أو أنهم عن حكمة طردوه ولم يقتلوه
وبذلك أوصدوا أبواب الشفقة دون المتشدين والضعفاء
ومنتهزى الفرص ؟ ؟

سواء يا صهرى العزيز ، أكان هذا أم ذاك فإني أنهى الحمد
لرجال الانقلاب على ترفعهم عن إهدار دم الملك الشرير وعلى

تركهم إياه يموت على مهل موتاً أدياً ، لا في مصر بل في الغربية على مرأى ومسمع من شعوب العالم ، ولأن هذا الموت هو السبيل القويم إلى اجتثاث العطف عليه من كل قلب ، واقتلاع الشفقة به من كل صدر ، ولأنه الوسيلة المثلى إلى جعل قلب كل مصرى كالسد المنيع دون الملكية وحكم الفرد .

لم أر بعد ياصهرى العزيز وجه اللواء « محمد نجيب » بطل هذا الانقلاب الذى أتمنى أن يكون فاتحة لتطهير البلاد من العائلة المالكة ، لأنى أعتقد أن الملكية الفردية إنما هى نظام لا يخلق أن يفرض إلا على شعب تأصلت فيه جذور العبودية وصار الرضوخ والاستسلام والركون إلى الاستكانة من مستلزمات حياته . قلت لم أر وجه اللواء محمد نجيب بعد فاقراً فى تقاسيمه ما إذا كان بطلاً فى صورة قديس أو بطلاً فى صورة مستبد عادل . وقد يستوى عندى أكان بطلاً بصورة قديس يسوس الشعب بالحب والحنان والرفق ، أو بطلاً عسكرياً يفرض عدله على الشعب فرضاً ، لأنى أكاد أؤمن أن بطولة اللواء محمد نجيب مهما بلغت من الرفعة والسمو ، ومهما جمعت من خصائص العبقريّة والاصلاح ، ليست بكافية لمقاتلة كل الطغاة

وما أكثرهم في مصر ، ومحو الفساد المستشري في النفوس ،
بمثل السهولة التي بها أنزل الملك فاروق عن عرشه ورماه في
عالم التشرد والغربة .

تعلم يا صهرى العزيز أن عدد الطغاة في مصر لا يزيد على
عشرات المئات ، منهم الباشوات ، وأصحاب الاقطاعيات الواسعة ،
والمرتزقة من أموال المستعمرين ، وطائفة تسمى بشيوخ الأمة
ونوابها ، وبعض حملة الأقلام وقادة الفكر والجواسيس ، وطغمة
ليست بالقليلة من كبار موظفي الدولة ، هؤلاء وغيرهم هم الطغاة
وطغيانهم نسبي بالقياس إلى كبيرهم المخلوع ، هل ترى ستمتد العصا
السحرية إلى هؤلاء الطغاة فتمحوهم محوا ، أو تقلم ظفارهم تقليما
أو تضرب بعضهم بالبعض الآخر فينبش الواحد مساوىء
الثانى ، ويشهد هذا بآثام ذاك ، ويشى هؤلاء بأولئك ، وبذلك
يصيرون جميعا مسبة الجيل ، ومعرّة التاريخ ، ومضغة الأفواء
وخزى الأبناء من الآباء ، وعبرة لمن وعت نفوسهم حقوق
الانسان ، وتيقظت أذهانهم على معرفة الحياة وتقدير المسؤولية
والواجب ، أو أننا فى حاجة ماسة إلى عشرة من أمثال « محمد
نجيب ، بطل الانقلاب الأول ؟؟؟

يقال هنا أن صحابة اللواء محمد نجيب لا تزيد على العشرة
 عداً إلا قليلاً، وأنهم كلهم صنوه وقرينه في الفداء والحب
 والاخلاص والایمان بمصر وشعب مصر، فهل ترى هذا الفادى
 المخلص هو «نجيب محمد» وصحابته قريعة صحابة محمد بن عبدالله؟؟
 يتحدث المتعلمون فى مصر. ولا أقول العلماء، وتشاركهم
 بعض الأوساط الجامعية ولا أحاول أن أنقل
 اليك يا صهرى العزيز شقشقة السنة العلماء، ولا ثرثرة
 أحلاس الفنادق والمقاهى، ولا ترهات بعض حملة الشهادات
 الجامعية، وأنى لأعفى نفسى من التنديد بهم والسخرية بتشديقهم
 وادعاءاتهم، ولا أنقل اليك كفرهم الا لألفت نظرك إلى أمر
 لا يغيب عن ذهنك وهو أننا شعب مشينا قديما وما برحنا نمشى
 وراء حكامنا ولكن قلوبنا تعرف من تحب ومتى تحب، وتشعر
 من تكره ومتى تكره ولماذا تكره !!

أين كان العلماء الأفاضل والأساتذة الأجلاء يوم كان
 فاروق على عرش طغيانه؟ أن صرير قلم واحد فى مناصرة الحرية
 الاجتماعية والدفاع عنها خير من عشرات القصائد ينظمها الشعراء
 فى التغنى بالحرية

إن صوتا واحدا يرتفع مناديا بسقوط الطاغية خير من أصوات آلاف من الناس تنادى بحياة البطل الظافر .

إن احترام البطل واجب ، والأكثر وجوبا من احترام البطل أن لا نشيع الغرور في نفسه بالتهليل له والمناداة بحياته لأن الغرور هو الكفن الذى تدرج فيه وثبة البطل وفى الختام أقول لك يا صهرى العزيز إنى برغم رضى المطلق عن هذا الانقلاب ، وبرغم إكبارى وإعجابى باللواء نجيب وصحبه ، وبرغم إقتناعى الذاتى بأن هؤلاء الأبطال سيفعلون ثم يقولون ، وأنهم سيعرفون كيف يتملصون من حبال الانجليز أصحاب العبقریات النادرة فى المراوغة والمطاولة ونصب الأحايل وإيقاع الفتن بين الأخ وأخيه ، والابن وأبيه ، وفى بذر بذور البغض فى الشعب الواحد وتمزيق وحدته ، إنهم سينتصرون على الغاصبين ويطهرون البلاد من الاحتلال ، وإنهم سيصلون حتما إلى تحقيق أغراض الأمة وأمانيتها هذا إذا اعتصموا بحبل الاتحاد والقوة ، وتمسكوا بمبادئ الثورة الحمر ، ولم ينحرفوا عن صراطها ، وأن لا ينخدعوا بألوان لها غير اللون الأحمر ، وأن يرووا الأرض المتعطشة إلى الإصلاح بالدماء « دمه الأرضى »

«أنى لا تروى بالدماء لا تثبت الإصمروح» برغم ذلك كله أقول
 أن ثورتنا ببراء عرجاء . ناقصة ناقصة . وأن لا منجاة لنا من
 أعدائنا فى الداخل وفى الخارج إلا يوم إعلان ثورتنا الكبرى ،
 الثورة التى لا معنى للحياة بدونها ، ولا رجاء لنا بغير إعلانها ،
 وثورتنا المنشودة تلك . ليست فى حاجة إلى محمد نجيب ولا إلى
 نبي مرسل لأنها «ثورة النفس على النفس» .

تقبل يا صهرى العزيز محبة والديساوى بها بين ابنه وابنته
 الوحيدة ، وتحيات والدين لا يملكان إلا الدعاء بدوام
 سعادة «صفاء» وهناءة العروسين

ما إن أتمت زوجتى تلاوة الكتاب وأنا مصغ منتبه
 واع ما جاء فيه ، حتى رأيت البشر يعلو وجهها والسرور
 يتمثل فى ابتسامتها ، والتفتت إلى تقول : إن من نعم الله على
 مصر أن تم خلع الطاغية بغير صدام دموى أو هبة من انتفاضة
 من رجال الحاشية والزبانية والمرترقة ، وأنى لفخورة بأبى
 لأن نظريته فى الملك فاروق كانت صحيحة ، وأن تنبؤه
 فيما يكون الحال عليه بعد خلعه سيتحقق .

قلت : هل كان لايبك نظرية وتنبؤات . ألم ينصرف إلى الزراعة وحياة الفلاح ؟

قالت بلى : لقد كان والدى يقول لزواره الذين انصرفوا مثله إلى الزراعة وعيشة الفلاحين ، أن كل طاعية جبان رعديد ، وأن جنبه وبطائه علة طغيانه . ويقول أيضا أن الثورة المرتقبة ، أعنى هذه ، ستكون ذات ثلاثة شعب . الأولى لانتزاع الأرض من أصحاب الاقطاعيات وتحديد الملكية الفردية . والثانية للقضاء على الباشوات والألقاب وتطهير الأداة الحكومية الفاسدة . والثالثة وهى أصلبها وأهونها فى وقت واحد ، هى إجلاء الانجليز عن أرض الوطن ، ثم اعلم يا زوجى العزيز أن والدى كان من جملة الأوائل الذين كانوا يعملون لخلاص وطنهم مع المرحوم « مصطفى كامل » وكان من أنصار « الوردانى » ، رحمه الله وغفرله ، قالت هذا وهى تتباهى مرفوعة الرأس بمدودة العنق ، فتذكرت القول المأثور « كل فتاة بأبيها معجبة »

قلت : هل تعرفين أن هناك من كان يعمل لهذه الثورة ؟

فأجابت ببساطة من يتكلم فى البديهيات :

أن فاروق وحوادث أمه وأخته من ناحية ، وأعمال
أعوانه وحاشيته وزبانيته ووزرائه من ناحية ثانية ، كانوا
يجمعون الحطب لإقامة المحرقة ، وأن الرجال العاملين لوطنهم
لا لذواتهم كانوا من ناحية أخرى يترقبون المحرقة ليقرّبون
كبش الفداء . ومن فضل الله على مصر أنه استجاب دعاء
المصريين الذين باتوا يجمعون على الذل ينزله بهم الطاغية الرجيم ،
ولكن الخوف الذى ألجم السنتهم ، لم يكبل أيديهم ويغلها عن
العمل ، وها قد ظهر العمل الصالح من جماعة العسكريين الذين
كان يعدهم الملك فاروق لأن يكونوا عدته يوم الشدة .

شعرت يا صاحبي بالضيق من هذا الموضوع ، وبالحاجة إلى
الخلاص من حديث الثورة ، وأن فى العودة إلى حكاية زوجتى
واعترافها الصادق ما هو أخف وطأة على نفسى من أحداث
الانقلاب الذى لا أدرى هل سيكون مقامى بين الرجال
العاملين ، أو بين زملائى فى الجامعة ، فقلت وقد سدّدت
نظرة إلى زوجتى مقرونة بابتسامة الغيرة . لنعد إلى حديث
خطبك وقد عزم على المجئ إلى القاهرة .

كان الانتقال من الموضوع مفاجأة لزوجتي ولكنها
تمالككت ثم أخذت تتمهل في طي الرسالة وفي إعادتها إلى
الغلاف ، وجلست في متكأها المريح ، وقبل استئناف الكلام
أخمدت في صدرها تنهدة خرساء وقالت :

قال لي خطيبي المسكين ، كنت شديد الشوق إلى زيارة القاهرة
ولعل شوقي ذاك كان وليد يومه ، بل وليد ساعته إذ ما كدت
أطأ رصيف محطة القاهرة حتى أخذت أفكر فيمن تجب
زيارة من أعرف من سكانها .

رحت أول ما رححت أزور بيت مخدومي ، ذلك البيت
الذي لذت بربه يوم هجرت قريتي فلقيت ، الأولاد وقد صاروا
شباناً وفرحوا بي ، ولشد ما انقلب فرحي إلى حسرة يوم زرت
السيدة زوجة الخواجة الإيطالي صاحب مصنع خرط الحديد ،
فعلمت من المسكينة أنها تعيش من ثمن ما تباع من أثاث بيتها ،
وعشرة قروش تقبضها من دار القنصل السويسري مساعدة
يومية لها ومثلها لكل من ولديها . أما زوجها فما برح معتقلاً
في معسكرات « فايد » . . . لقد منحت تلك السيدة منحة من
المال قلت أني سأستردها فيما بعد ثم قال :

لقد أقلقني ضجيج القاهرة ، وترددت كثيرا في السفر إلى بيت أخوالى . تمثلت نفسى طفلا سأحاسب على هربى منهم وألام على اختفائى عنهم طوال هاتيك الأعوام . وتخيلت أُمى يوم كانت تختطفنى من الحارة فتأخذنى إلى بيتها تغسل جسمى القدر وتبدل جلبابى الملهل ، وقد تراءت لى صور كثيرة كانت تقلبنى تقلبيا وترنخى بين الأقدام والاحجام .

تعمدت أن أصل إلى بيت أخوالى عند ضحى يوم الجمعة فلما بلغت القرية وأخذت أجتاز الطريق إلى البيت ، كنت أحيى الدور والحارات والزرع والأشجار أبتسم لها ابتسامات الفرح بها ، وقد تمثلتها شخوصاً حية من أهلى ودمى نهضت للقائى .

هل صدّق أخوالى أنى ابن أختهم ؟ لم احتجبت نسوة أخوالى عنى ولم يظهرن أمامى حين ظهرن مقنعات غير سافرات ؟ كيف عرفتنى أُمى وقد هرولت للقائى ففتحت لى صدرها فالتصقت به وأوغلت فيه فبلغت قلبها الخافق وحنوها الوديع . كانت أُمى تقبلنى وهى تبكى . لا لأنى الولد الذى كان ضالا فوجد بل لأنى بعثت من جديد وقد شاع عنى

أنى مت غرقا يوم كنت أسبح فى الترعـة مع أولاد القرية وقد
جرفنى التيار، ولكن حدس الأم الصادق كان يوحى إليها بأنى
مازلت على قيد الحياة، وأن روحى كانت تخاطب روحها وتعدّها
باللقاء، وهما قد التقينا بعد أعوام طوال ... لقد تبدت لى أمى
جميلة، طيبة القلب وديعة، ولم أرض أن أقارنها بواحدة من
نسوة أخوالى وقد أحببتها

قلت هل أحببت أمك أكثر منى؟ فأجاب
حب الأم تقديس واستطرد يقول:

شاع خبر عودتى عند سكان القرية فهرعوا للسلام على
يسمعون من أخوالى أخبار نجاح ابن اختهم وحكايات
كفاحه وقد أترى من العمل فى السلطة الإنجازية. وقد رأيت
زوج أمى وعرفته بين المقبلين للسلام على.

وبعد يوم أو يومين من وصولى، أعلن معان مجى، حضرة
العمدة فأحسست برعشة لم أحس بمثلها إلا ساعة خفق قلبى
لأمى. ولحت اضطرابا ارتسم على وجوه أخوالى وارتباكا
دب فى حركاتهم. أما أنا فقد أخذنى الزهو والخلاء، وأنى
ماكدت أراه بقيافته ووجاهته حتى انكبت على يده أقبلها

جلس فجلسنا... لم يتكلم حضرة العمدة فسكتنا... تفحصت وجوه أخو الى فإذا بأمارات الحيرة بادية فيها... وتطلعت إلى وجه العمدة فإذا به منقبض وعيناه دامتان ، ولكن سرعان ما تبذلت ملامحه ، وجرت على شفثيه ابتسامة رقيقة ، وراح يسأل أخو الى أكبرهم فالأصغر عن حاله وعياله ، كيف حال «الجماعة» وكم لك من الأولاد... لقد كانت الردود على أسئلة العمدة مضطربة مقتضبة ، ولم يكن الجو صافيا . أدركت أن هناك أمراً خطيراً ، وسراً لا بد من معرفته ، ولكن أسئلة حضرة العمدة وقد أخذ يوجهها إلى ، واسترساله في الحديث معي صرفاني إلى حين عن التفكير في السر الذي قلت بوجوب نبشه .

وقف حضرة العمدة فوقف جميع من في المجلس ، وتوجه بالكلام مرة أخرى إلى أخو الى بقوله لهم «نحن أهل يا جماعة» ومقام مصطفى هذا ، وقد وضع يده على كتفي ، هو في بيتي فيها بنا جميعا وأنت معنا يا شيخ حمدان — يعني زوج أمي — هيا إلى بيتي وهو بيتكم نفرح بعودة ولدنا إلينا ، وأخذني من يدي .

لبي الجميع دعوة حضرة العمدة إلا الشيخ حمدان ،
 وإذا بحضرة العمدة يربّت كتفه ويقول له بمودة ورقة ،
 ليرحم الله الماضي ياشيخ حمدان أن وجود مصطفى معنا ،
 يحتم علينا نسيان الماضي ويوجب عليك الفرح يا بني وهو ابنك
 وابن أخواله أيضاً.... وما كدنا نتخطى عتبة الغرفة ونبلغ صحن
 الدار ، حتى سمعنا الزغاريد تنطلق من حناجر النساء وقد
 رأيت أمي بين المزغردات تضحك وتبكي .

مشينا جماعات في الطريق إلى القرية القريبة حيث
 دار العمدة وقد لقيت من كرم الضيافة عنده ، ومن تأهيله
 بأخوالى وبزوج أمي ، ومن الهشاشة لى والحدب علىّ
 ما دعانى إلى إعمال الفكر في حل هذا الأمر الغامض .
 أخذت أجتر قول العمدة للشيخ « حمدان » فلم أهضمه ، وأنى
 لى أن أفهم ، أنى ابن للشيخ حمدان كما أنى ابن لأخوالى وأن
 العمدة والدى ؟ كل هاتيك الأقوال كانت لى بمثابة أحاجى ،
 ثم تعقدت هذه الألغاز ساعة رأيت العمدة وأخوالى
 وزوج أمي يدخلون غرفة فى الدار وقد خرجوا منها بعد
 ساعة طويلة من عزلتهم مشرقة وجوههم بالابتسامات .

قارب الليل أن ينتصف ، وقد أخذ زوار العمدة ينصرفون
ولما هم أخوالى بالانصراف قمت معهم وإذا بحضرة العمدة
يقول لى بلهجة فيها من التلطف بقدر ما فيها من الارادة الآمرة
« ألم أقل لك يا مصطفى أن مقامك هو فى بيتى » ومن العجيب
إنى تسمرت فى مكافى ... وقد ودعنى أخوالى وزوج أمى دون
أن ألفظ كلمة أو أبدي إشارة تدل على الرفض أو الاعتراض
ووقفت وقفة المستسلم .

نهضت زوجتى وقد أشاعت على وجهها ابتسامة كانت
كالسحابة الشفافة فى السماء الصافية : ألا يأمر مولاي أمته
الثرثارة أن تسكت عن الكلام المباح وقد أظف وقت الطعام
قلت وكأني حقاً شريار الحكيم : أراك تختزلين الكلام
جلاسة بعد جلسة ، ويحسن منك الاسترسال فى
الحكاية لأرى كيف يكون انطباق فك عند توكيد الكلمة
وكيف تتكسر العبارة العاطفية وتلين فى شفيتك القرمزيتين
قالت ما علينا اليوم من هذه اللامحات يا زوجى هيا إلى
الطعام ... وبعد العشاء قمنا إلى الشرفة نحتسى القهوة وندخن
وظفقت زوجتى تقول :

قال خطيبي : أحييت الليل أستعرض مشاهد النهار ، أمضغ أقوال العمدة وأجترها وأستعيد مواقف أخوالي وقد كانت صامته خرساء . لقد عييت حقاً عن إستجلاء الموقف ، ولم أدرك حتى بواعث الزغردة وقد اشتركت فيها نسوة الحى أجمعين . وقرب الفجر شعرت بباب غرفى يفتح ورأيت حضرة العمدة يقترّب منى ويبحس فى جانب فراشى ، ولم يدعنى أنهض من مضجعى ، وأمرنى أن أنصت إليه : قص على قصة نظرتة الأولى لأمى ، ووصف لى أثر تلك النظرة فى نفسه وقال ، لقد بنيت بأمك . ولم يطل أمد عشرتى لها لأسباب لم يكن فى وسمعى دفعها ، ولا فى استطاعة الطب معالجتها ، ولا فى مقدور أمك الصبية إلا السكوت عنها والصبر على احتمالها ، ولكنى أنا الرجل المتخاذل ، لم أعد أطق تفسى فطلقت زوجتى طلاق الضعيف المستقوى ، ونبذتها نبذ الجبار الرعيد ، ولم أعلم أنها حملت منى ولا كيف حملت ، لذلك ثرت على نفسى وجن جنونى . . . لقد أنكرتك يوم ولدتك أمك وإمعاناً منى فى الإنكار وزعت أطيانى على زوجتى الأولى وأولادها ، لقد تعمدت حرمانك من كل حقوقك نكايه

بأمك وقد صفعنتى بسكوتها ، وبأخوالك وقد دفنوا تخاذلى
بشم وأريحية ، لقد أشعلت أمك بتغاضبها عنى فحمة ضميرى
فأخذ يبكتنى وينهش قلبى آه لو كنت تعلم يا ولدى
كيف كانت الغيره تنهش قلبى يوم قيل لى أن الشيخ حمدان
تزوج من أمك ، ثم كيف أخذت أطمئن بعض الاطمئنان
يوم قيل أنك مت غريقاً كأنك غريمى لقد جازت إشاعة
غرقك على كل الناس وعلى أخوالك أيضاً وقد استجزتها الأغالط
نفسى ، ولكنى كنت أتتبع خطواتك منذ كنت تحبو بالحارة ،
ويوم جئت الحقل تجنى القطن مع الصبية ويوم ركبت الأوتوبيس
إلى القاهرة ، وقد هدأ قلبنى لطول غيابك وأخذت أوهم
نفسى بأنك مت حقيقة لأميت شعورى بالتخاذل والحياء من
ضعفى ، وهو ضعف لا حيلة فيه ولا حياء ، إنما هى المكابرة الجاهلة
والعناد الأحق . والآن وقد عدت يا ولدى بعد أن كنت
نفسك ، وصيرت رجولتك بعزيمتك ، فقد عدت لى وحدى ،
أنا الشيخ الفانى ، لقد أعادك الله بعد غياب طويل لأخفف عن
صدرى بالاعتراف لك بخطيئتى الكبرى ضد أمك البريئة
الطاهرة وضدك أنت الذى لا جريرة لك ولا إثم . وصمت

هنية وهو مطرق ثم قال بلمجة توكيدية : سأكفر عن كل ما
 اقترفت في حقك ، سأعوض عليك ما أضعته من إرثك
 الشرعي بزويجي إياك من فتاة ستكون لك خيراً من أيك
 وأكثر عطفاً عليك عن أمك وجاء بي إلى والدك يطلب
 يدك لي ... لقد رضيتي والدك الكريم أن أكون له صهرا
 فهل ترضين أنت بي فأكون لك زوجا حبيباً ؟
 قلت لها: أن في حكاية الوالد للولد فجوات يعسر تخطيها ...
 فقاطعتني وقالت :

ليس في سياق الحكاية فجوات ، إنما فيها تحايل النفس المتهذبة
 على وصف الأمر الشائك بالإشارة والرمز ، وأعتقد أنك
 أدركت كل شيء ، واستطردت تقول : لقد ابتسمت لذلك
 المسكين ابتسامة الرضا وقد ودعني مكتفياً بمصاحفي وقال
 لوالدى ساعة وداعنا بأنه لن يطيل غيابه

ولما خلوت بنفسى أخذت أتمثل صورة جديدة من
 صور قوة عزيمته ، وصراحته في حديثه ، واعتداده بنفسه ،
 وجهره لي بما كان يجب أن يكون مكتوماً عني .

بهاتيك السجايا فتحت قلبي للزوج المسكين ، وعلى تلك

الخلائق تنازلت عن مطاعم الفتاة العصرية في مشاركة الرجل ومساواته في كل شيء، وعدت إلى طبيعة المرأة، إلى البيت الذى جعل لها ولم تجعل هى إلا له، واستطردت تقول :
أخذت كتب ذلك المسكين

قلت : لم تنعتين ذلك الحبيب بالمسكنة ؟
نظرت إلى نظرة ساهية وهى ترفع رأسها بثاقل وقالت :
أخذت كتب ذلك الشاب المسكين ترد تباعا فى كل أسبوع ،
لا يحماها إلينا ساعى البريد، بل كان يقدمها لنا والده حضرة العمدة
وقالت وهى تتكلف الابتسام ، قد يسليك سماع نص رسالة من
هاتيك الرسائل ألا يثقل عليك أن أتلو واحدة منها ؟
قلت : وأنا شبه محقق هل تحماين رسائله معك ؟

قالت : أجل كنت أحماها هنا ، وأشارت إلى صدرها ، إلا
رسالة واحدة سأدفعها اليك ، أما تلك فقد كنت أعياها فى
ذاكرتى ولكنك محوتها أنت بيدك الكريمة واستطردت تقول :
دعى حضرة العمدة إلى السفر فورا إلى الاسماعيلية بطلب
من المعسكر الانجليزى . . . وعند عودته من رحلته تلك
عرف والدى أن زوجى قد مات قتلا .

قلت بنبرة : من الذى قتله ؟

قالت : القدر الظلوم الأهوج هو القاتل ، وقد انحدرت
الدموع من عينيها وأخذت تتلقاها بمنديلها .

جهدت فى مكانى وركد لسانى ... لقد طال سكوتنا ، وكنت فى
فترة الصمت الرهيب ذاك ، أراقب انفعالات نفس زوجتى تنطبع
على وجهها ، وكان صدرها يعلو ويهبط ، حتى توهمت أنها
أغشى عليها ... أسرعت فأسعفقتها بكأس من شراب منعش ،
فانفجرت وهذا انفعالها ، وعندما تمالككت أخذت تقول
بصوت حزين : لقد فصل العمدة وقائع النكبة فقال ، لقي
المسكين قداحة ملقاة فى جانب الطريق فالتقطها . وبينما
كان يعالجها بالفتح انفجرت فمزقت جسمه وهشمت رأسه
رددت فى سرى قولها « مزقت جسمه وهشمت رأسه »
ترديد المرتاح لتلك الخاتمة المشؤمة التى مهدت لى سبيل
الوصول إلى هذه الفتاة الجامعية الفلاحة ، وفهمت بغير وعى
وبصوت مسموع « ليرحم الله الشاين القتيلىن »

قالت : لا ... لا تقل القتيلىن ورفعت كفيها إلى السماء
وقالت « ليتولى الرحمن القليل بالرحمة » ثم خفضت كفيها وقد

ألقتهما على كتفى « ولستولى أنت برحمتك يا زوجى العزيز » .
قلت : كيف أتولاك برحمتى وقد استقطرتك هذه الفاجعة
بالذات ولم يبق فيك سوى الأنديق .

قالت : صحيح ما تقول أن المرأة إنديق للاستقطار ولكنها
ليست المادة التى تستقطر ... قد يعطب الأنديق ياسيدى . وقد
يجرح قلب المرأة . ولكن الزوج الحكيم يصلح ما يعطب
ويضمدهما يجرح . وطوقتني بذراعيها وقالت : لقد التئم جرحى
بمجرد اعترافى لك بالقسم الأوفر من حكايتى لأنك الزوج
المداوى ... إن فى قلوب النساء ياسيدى مناعة تتغلب على كل
حادث ، قد تجرح قلوب النساء وقد تتحطم وتسحق سحقاً ولكنها
تبقى نابضة للحياة . وما من شيء يميت قلب المرأة سوى العقم .
فجمتني حكاية زوجتى فنهضت وتوجهت إلى غرفة النوم
فتبعتنى وتصدت لى بمجموع مغرياتها وكامل أنوثتها وأقبلت
تثنى دلالة وتبتسم كوردة فى بدء تفتحها لم أستجب
إلى تصديها ، ولم أؤخذ بمغرياتها لأن نار العقل التى أضرمتها
بحديثها ما زالت تحرق رأسى .

عشاً حاولت التحرر من عنعنات العقل وتقديراته ، ولم أقو

على الانفلات من شباك الفكر... لقد ظفر ذهني المتمرد بعاطفتي
الجامعة فتركني جسما مشلولاً يجثم فوقه العقل المسيطر.... عبثاً
حاولت الانطلاق إلى مراتع اللذة ومغاني الشهوة لاسكر بخمرة
غير خمرة العقل.

أدركت زوجتي الشيطانة بغريزتها أى حرب تصطرع في
خاطري وأى قتال ناشب فيّ بين قوتين متعادلتين . أحست
بفطرة المرأة أنها قادرة على التسلط على عقلي وإرادتي متى
أرادت ، وأن في وسعها تحويلي من اتجاه إلى آخر معاكس .
إقتربت من فراشي وكنت قد توسدته ، وانحنت فوقى
تقول «أيرضيك أن تدخن لفافة تهديء بعض ما بك من ثورة
مكظومة ؟

قلت : أية ثورة تلك التى تعنين ؟

قالت وهى تمط شفرتها : لتكن الثورة التى أعنى هى الثورة
الدائمة الاضطرام فى الرجل الحى ، وقد قربت وجهها منى قريباً
فشملت رائحتها ، وعادت تقول وهى شبه مغمضة العينين .
« كل امرأة سيجارة للرجل ، كل امرأة لفافة تبغ يدخنها
الرجل تارة للذة والراحة ، وتارة للترفيه عن النفس ،

ومرة أخرى للهروب من النفس ، وكثيرا ما يحرق الرجال
لفافاتهم اعتباطا لغير ما قصد أو غرض !!؟

انه ليرضيني منك يا زوجي العزيز أن أكون لك تلك
السيجارة تستطيب طعمها ، تنعم برؤية دخانها يتصاعد رقيقا
يتماوج ويفنى . وبنارها تؤجج صدرها ، وبرمادها تنفضه
باستهانة وعدم مبالاة ، أنه ليرضيني منك يا سيدي أن تخدم
ناري برمادي ، أو تطرحني بعيدا أحترق على مهل حتى ألفظ
النسمة الأخيرة .

رفعت رأسي وقد كدت أطوق عنقها بذراعي ، ولكنها
استوقفتني بإشارة وقالت: أما الآن وقد غسلت صدري
بالاعتراف اليك يا زوجي الحبيب ولم يبق إلا أن أتم لك
الحكاية ونحن في خاتمتها .

قلت : الحكايتك المشبعة خواتيم أيضاً ؟

قلت : نعم ، ولكن لا محيص أولاً من أن أتقدم اليك
بعهد الزباط المقدس بأن أكون زوجة وفية ، ووالدة حنونا
على أولادنا ، وحارسة أمينة على بيتك ، كما لا محيد لك عن أن

تسطر يمينك عهد حياتنا الجديدة ، ولن تتم لنا السعادة الكاملة إلا إذا رفعت هذا الحمل الثقيل على صدرى .

قلت : حمل الرسائل المطبوعة على صفحة صدرك أليس كذلك ؟

قالت : لا ياسيدى ، لا الرسائل الساذجة تلك التى توهمت

أنها الجائئة فوق صدرى هى القصد ، إنما الجبال الثقال التى

أحملها هى هذه ، وقد مدت يدها إلى صدرها فانزعت ثلاثة

من دفتر حساب صندوق التوفير ورمتها بين يدى .

قلت بعد أن اطلعت على الدفاتر ، ما علاقة هذه النقود

بحديثنا ومن أين لك هذا المال وكيف حصلت عليه ؟

قالت هذا ما كنت أتوقعه ، والآن وحكايتى لم تتم بعد فهل

لك فى إجلاسى بقربك فأقص عليك خاتمة الاعتراف ؟

واستطردت تقول :

... أودعنى القتيل ، يرحمه الله ، قبل سفره إلى

الاسماءيلية رزمة من الأوراق النقدية ودفتر توفير فى صندوق

البريد وقال : عندما أعود سنستعين بهذا المال المدخر

على تأييث عشنا ، ولما دعت الداهية وقد أذهلتنى حين نزولها

المفاجيء ، تمالكت حواسي ، وحرصت على الوديعة المدفونة في صدري فلما خمدت حديثها ، شعرت بأن ليس من حق الاحتفاظ بذلك المال .

أطلعت والدي على الأمر وكنت قد كتمته عنه وعن والدي أيضاً ، فأشارا على بوجوب عرضه على حضرة العمدة لأنه مثلي صاحب حق في الارث ، فلما فعلنا قال الوالد الحزين كنت مصمما على مفاحتكم في الأمر فور عودتي من الاسماعيلية ولكن المصيبة أفقدتني وعي وأقعدتني عن الواجب ، ومد يده إلى جيبه فأخرج منها رزمة لا تقل ضخامة عن التي كانت معي وقال : خذي يا بنيتي هذا المال ، لقد كان الانجليز كرماء في دفع دية عن زوجك القتل .

قلت محتجة إن مال المرحوم ابنك مودع عندي . هاكه يا عمي تصرف به أنت وفق رأيك الحكيم . وأيضاً هذا الدفتر وقد سلمته إياه ، فقال وهو يمسخ دموعه ، استبقى هذا المال عندك ، سأعود اليكم بعد أيام ولما عاد أثقلني ثانية بالمال الذي استرده من صندوق التوفير وقال وقد أخذ يدي بين كفيه .

وليس من حق والد مثلي أن يرث ولدا لم ينفق عليه قرشا واحدا . ولا حذب عليه ، ولا مسح شعره بل من واجب الوالد البائس المنكود الذي أنكر ولده تشفيا من أمه البريئة أن يبكيه مدى الأيام الباقية من عمره ويبكي نفسه الحزينة حتى آخر ساعة من حياته ، إنما أرجوك يا بنتي أن لا تنسى إعطاء والدته المسكينة حقها . لأن القليل من المال يسعف زوجها الطيب القلب ويعينه على تربية أولاده ، وزودني بأدعية الأب الشيخ مكلوم الفؤاد وودع ولم يلتفت إلى توسلاتي ولا إلى رجاء والدي وكان يقول « لخدمات ابني فليرحمه الله اما أنت يا بنتي فليسعدك الله » .

قلت : ألم تنقذي الأم حقها من الارث ؟

قالت رحت إلى حماتي فأعطيتها بسخاء من مال ابنها وهي لا تدري أ كثيرا ما نقدتها أم قليلا انما كانت تبكي بدموع النادم على واجب قعدت الأم عن القيام به وكانت تقول . لقد حملت به في الشقاء وولدتها شقيا وعاش المسكين ومات شقيا ، ولم يتسم له ثغر الحياة إلا حين رآك ، وليغفر الله لأبيه الذي أشقاه .

قلت : لم لا تتركى هذا المال لأليك . أكان لزاما عليك
حملة إلى ؟

قالت : لقد ترك لى والدى كل ما يملك من أرض وعقار
وستكون أنت الأمر المتصرف فى وفيما أملك
سامحنى يا زوجى الحبيب إذا كنت ضننت عليك حتى اليوم
بتقديم هدية منى تذكرك بى ساعة بعدى عنك حين تكون فى
عملك ، لقد وددت أن تكون الهدية ساعة فوق معصمك تذكرك
بدقات قلبى المتوالية فى حبك ، ولكنه كبر على يا زوجى
الحبيب أن تظن أو تتوهم أن ثمن تلك الهدية هو من ذلك المال
الموروث .

قلت لقد حملته إذن ليكون حجازا بيننا ؟
قالت هوّن عليك يا زوجى الحبيب ولا تحمّل الأمر فوق
ما يحتمل ، ولا يغربن عن بالك انى ما عرفت الا الناحية البسيطة
من أخلاق ذلك الزوج المحروم ، ولم ألمح فيه إلا بارقا من روحه
الانسانى الساذج ، فعلى قدر هذه المعرفة وما تستأهل ، يكون
الحساب . وانى لما كنت مؤمنة بك يا زوجى الحكيم ،

وبمقدرتك على تصريف الأمور بتبصر وحكمة ، اعترفت لك ،
 بل ألقىت حملي الثقيل على عاتق زوجي الرجل الرجل ، لقد
 نأت طويلا بحملي فعليك الآن أن تخفف عني مانأت به ، بل
 عليك أن تحمل أثقال الزوجة وأحمالها ، بل يجب علينا أن ندفن
 الماضي بكل ما علق فيه وانطبع في لوحته وليس على المرأة
 أن تسأل عن ماضي زوجها لأنه لم يكن لها ، وانكبت على
 يدي فقبلتها وأخذت ذراعي فتوسدتها وراحت في نوم عميق
 أحييت الليل أقلب الطرف مرة في زوجتي الراقدة وقد
 كان انتظام نفسها وكل قسمة من قسما وجهها المسترخية
 تنطق بتمام راحة النفس وكل اطمئنان البال : ومرة في دفاتر
 الادخار ورزمة الأوراق المالية وكأنها كانت حجازا يفصل
 ما بيني وبين زوجتي . وكنت أتخيل أن صورة خطيبها ذاك
 تمثل في خاطرها وتشخص أمام عينيها وستبقى ماثلة في خاطرها
 كلما نظرت إلى .

رأيت الحزن يجلبه والالم يحز في نفسه فقلت له وأنا
 أضحك وأقهره : يا لك من حنلي يقف بين الحرام والحلال ،

ومتردد بين الخير والشر ، أنسيت يا صاح أن المرأة تحي في
الساعة التي هي فيها ، ثم قلت بلهجة الناصح إن أردت أن
تسترد ضميرك الضائع وتحياه أن تذكر ماضيك ولا تنساه...
عد إلى ماضيك واذكر دائماً أنك شرقي وابن مصر
وأدعوك إلى شراء طاقة من أجمل الورد الأحمر تقدمها
هدية لزوجتك الفلاحة الجامعية التي عرفت وعرفت نفسها...

